39

حروف

الهيئة العامة لقصور الثقافة

قصص



سداسيّة الوصول

محمود أحمد علي

سُداسيَّة الوصــول

قصص قصيرة

محمود أحمد على

وزارة الثقافة



سلسلة
حروف

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. سيد خطاب

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

ابتهال العسلى

الإشراف الفنى

د. خالد سرور

- سداسية الوصول
- محمود أحمد على
- الطبعة الأولى:

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة - 2014 م

- تصميم الغلاف:

د. خالد سرور

- المراجعة اللغوية:

اشرف عبد الفتاح

- رقم الإيداع: ٢٠٢٨١/ ٢٠١٤
- الترقيم الدولى: 978 977 718 897 5
- المراسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى : 16 ا شارع امين سامي - قصر العيني

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت : 27947891 (داخلى : 180)

- الطباعة والتنفيذ :

شركة الامل للطباعة والنشر

ت : 23904096

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية لمبدعى مصر المستحقين

الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن راي المؤلف وتوجهه في المقام الاول.

سُداسيَّة الوصـول

مفتتح..

إن كاتبا رديئا قد يفاجئك بمشهد لا يستطيع أن يكتبه أديب عالمى.

" نجيب محفوظ "

إهــــداء

إلى المخلص لشعره..

صديقى الصدوق..

الشاعر الكبير (سامح السيد شعير)

صدقنى الزمن القادم لك

واليهم جميعاً..

قصصى القصيرة هذه

التى أعطتنى أكثر مما أستحق

محمود

سداسيّة الوصول

الأحرف الممصوصة..!!

شمس أغسطس الحارقة جعلتني أتصبب عرقًا؛ حتى أصبحت كالخرقة المبتلة.. مدخل الشارع كئيب للغاية.. خطواتي راحت تتثاقل شيئا فشيئا، أسير خطوة، كمن يتعلم السير لأول مرة، وأقف خطوات، ريقي قد جف تماما، أريد من يبلله بكوبٍ كبيرٍ من عصير القصب الذي نهاني عنه طبيبي، ورغم أني تلميذ مطيع- كما يقول الطبيب- إلا أنني أعارضه وبشدة في هذا الأمر تحديدا لضعفي الشديد أمام حلاوته، ولكن أين هو الآن..؟! راحت عيناي تتحركان يمنة ويسرة باحثتين في شوق عن محل عصير قصب يكون مفتوحًا، فكثير من المحلات تم إغلاقها بعد أن فرضت وزارة المالية على أصحابها ضرائب باهظة، لا يقدرون على دفعها، وأكثر من هذا أصدرت الوزارة أوامرها - القاطعة الفاصلة التي لا تقبل المناقشة أو

التراجع عنها - بعدم زراعة القصب في غير أراضي الدولة التي خصصتها لهذا الأمر، ومن يخالف هذه الأوامر يتم معاقبته وإغلاق دكانه لمدة لا تقل عن سنة كاملة .

أصدم وأنا أقرأ ما كتب فوق الأبواب (الصاج) لكثير من المحلات . .(مغلق لمخالفة الأوامر) . . ما هذا . . ؟! عقدت الدهشة لساني، انتابتني رغبة عارمة من الفرح الشديد، تلك الفرحة التي جعلتني أهرول مشدوداً بخيط من التشويق، حتى كنت في جوف المحل وسط الزحام الشديد الذي راح يتزايد من محبي عصير القصب .

تدافع الناس بشدة إلى المحل ،جعل معالمه تتلاشى تماماً، ولم يعدْ يتبقى من معالمه غير عنوانه البارز بقوة . .(الوزيرى لعصير القصب) الماركة في يدى منتظراً أخذ دورى، وعيناى على العصير وهو يصب في الأكواب في سرعة متناهية، حتى وجدت ريقي يتحرك . . !!

الزحام الشديد وتدافع الناس؛ جعلاني أجد نفسي أمام العصارة، وذاك العصَّار الذي راح يعمل في آليَّة منتظمة يضع أكثر من عود قصب في فم الماكينة، التي راحت تروسها تلتهمها في سرعة فائقة لم أرها من قبل . . عاد الزحام يشتد أكثر فأكثر، حتى وجدتني أقف خلف الماكينة حيث خروج أعواد القصب الممصوصة . . وقفت مذهولًا غير مصدق ما أراه، اتسعت عيناى استنكاراً ودهشة، أعواد القصب الخارجة بعد مصها كتبت عليها كلمات . . تلك الكلمات

التى تقطعت إلى أحرف متباعدة وراء بعضها البعض بفعل العصر ، رحت أقرأ الأحرف الممصوصة ، صدمتنى المفاجأة غير المتوقعة ،كذبت نفسى فى أول الأمر ، ورحت أعيد قراءتها المرة تلو الأخرى ، وفى كل مرة يزداد يقينى ، حتى وجدتنى أردد تلك الأحرف على مرأى ومسمع من الحضور . .

ا ل م و ا ط ن م ص ر ى.

التورتة..!!

أسرعوا تباعًا، أفرادًا وجماعات، جاءوا كما اعتادوا دومًا ملبين دعوة كبيرهم، تلك الدعوة التى لا تأتيهم إلا مرة واحدة تحديدًا فى ذلك اليوم.. اليوم الذى ينتظرونه دومًا، يودعون فيه عامًا ويستقبلون آخر جديدًا.

المكان يزداد ضيقًا رويدًا.. رويدًا لكثرة المدعوين، ظلوا يتبادلون الضحكات، والنكات وأطراف الحديث، وتبادل المصالح والمشاريع، ورغم ارتفاع أصوات المصالح، إلا أن العيون.. كل العيون ظلت تحدق فيها.. فيها وحدها، وهى تجلس فى شموخ وكبرياء، بعد أن تفنن فى صنعها العشرات من صانعى الحلوى، صاحبة الحفل، أو الليلة قد تغيبت أو غيبت عن قصد أو دون قصد، لا يهم.. المهم أن هذه التورتة قد صنعت على شاكلتها، ألبسوها أجمل الثياب وعلى

جوانبها زينوها بأجمل الرموز التي تميزها عن غيرها ؛ لتزيدها جمالًا على جمالها ، وفى المنتصف كُتب اسمها ، الجميع ينتظر فى لهفة وشوق اللحظة المرجوة . . فاللحظة المرجوة هذه هى غايتهم ، فغيابها لا يعنيهم فى شيء ، فهم ليسوا بعشاقها - ولن يكونوا - حتى يستفسروا عن غيابها ، وإنما هم عاشقو التهامها ، وتذوق حلاوة طعمها فقط ، هذا الطعم الذى ما إن يتذوق حلاوته شخص ما لا يمكن نسيانه ولذلك هم يزدادون ، وهى لا حول لها ولا قوة ، ليس لها أن تعترض ، وكيف تعترض بعد أن سلبوا منها إرادتها . . ؟ ! صوتها . . قوتها . . ؟ ! إنها امرأة مهزومة هزمتها الأحلام والآمال الخائبة .

هى لا تطيقهم ، ولكنهم فُرضُوا عليها . . هى لا تحبهم ، فكل من أحبتهم ، وأحبوها ماتوا من أجلها فنظريّة التعايش الحديثة التى تلت الحداثة تقول :

من يلمع فجأة ، يصبح له نصيب فيها ، من يدفع أكثر من غيره للعازف هو الذى يختار اللحن ، لذلك ازداد عددهم عن الحد المفروض ، مما جعل صاحب الدعوة يقف حائراً . . عشرات الرؤوس البشريّة الطامعة فى أخذ نصيب من التورتة ، وبرغم أن حجم التورتة كبير . . كبير جدًّا ، إلا أن حجمها صار صغيراً بالنسبة إلى عددهم .

- ماذا أفعل حتى أرضى الجميع . . ؟ !

قالها فى صمت صاحب الدعوة ، وهو ما زال يحدق فى الرؤوس المنتظرة فى لهفة وشوق ، أردف من بعد سكون :

- ماذا أفعل . . ؟ ! العدد كبير جداً ، وحجم التورتة لم يعد يكفى هذا العدد .

راح يردد فى صمت ، وهو يجول بنظراته فى الرؤوس المنتظرة فى لهفة وشوق :

- ماذا أفعل . . ؟ ! ماذا أفعل . . ؟ !

ظل يفرك مقدمة رأسه فى عصبيَّة شديدة . فكر ثم قرر ثم قال والسعادة تملأ عينيه :

- فكرة جديدة وجميلة ، لن أجد أفضل منها .

نزل إليهم ، تسبقه ابتسامته ، التفوا من حوله ، قال لهم فى ثقة وتخابث :

- دقائق وسوف نودع عامًا ، ونستقبل آخر كله بهجة وسرور ، ومشروعات وصفقات جديدة ناجحة ،وبهذه المناسبة سوف أحدثكم عن فكرة جديدة وجميلة ، تدخل علينا البهجة والسرور ،سوف أطفئ المصباح فى تمام الثانية عشرة وما عليكم فعله فور إغلاقه إلا أن تسرعوا نحو التورتة .

أنهى حديثه إليهم ، وراح يقرأ وقعه عليهم ، علامات الارتياح والسرور بادية على الوجوه . . كل الوجوه ، فكل منهم يطمح فى أخذ زيادة .

مبتسمًا راح يتحرك فى بطء وكبرياء نحو مفتاح الكهرباء .

وقفوا جميعًا على أهبة الاستعداد ، العيون . . كل العيون اتجهت إليها ، منتظرين اللحظة الحاسمة .

– خمسة . . أربعة . . ثلاثة . . اثنتان . . واحدْ .

أُطْفِئَ المصباح . .تعالت أصوات الأنا . .أُضِيء المصباح . .السعادة كل السعادة بادية على الوجوه، لقد أتوا على التورتة كلها، ولم يتبق منها غير اسمها الذى سقط على الأرض، والذى كتبت أحرفه الثلاثة باللون الأحمر والأبيض والأسود .

الهروب من....!!

رُحت تصوّب "الريموت" في وجه التلفاز، الذى قد راح يغطُّ فى نوم عميق منذ أيام طويلة.. طويلة جدًّا لا تعرف عددها، يخرج عليك برأسه الضخم، وصوته النشاز، وابتسامته البلهاء التى لا معنى لها ولا لون، وراح يقول:

- أعدكم بتخفيض أسعار السكر، واللحوم، والأدوية، وبناء مساكن جديدة للشباب، و......... و......... و........ و........

وعوده الكاذبة دومًا تسببت فى انفجار بركان غضبك.. فجأة.. تجد نفسك تبصق فى وجه التلفاز، وسرعان ما أغلقت شاشته التى اسودت كأيامك.. فى عجلة تقوم من مكانك.. تدخل (مطبخك) الضيق كأحلامك التى راحت تضيق عليك رويدًا..

رويداً . . رحت تصنع فنجال قهوة سادة- كما أوصاك طبيبك ؛ من جراء إصابتك بالسكر ، الذى غزا جسدك الواهن فجأة- ؛ كى تهدأ الأسئلة التى استيقظت لتوها فى رأسك ، وراحت تتصارع . . تشعر باختناق . . تفتح (شباك مطبخك) . . سريعًا يدخل الهواء حاملًا صوته ووعوده ، من تلفاز جارك الأستاذ (حالم) الذى لم يزل يحيا ويحلم بزيادة معاشه- كما وعد بذلك صاحب الصوت فى خطاب سابق- والذى لم يعد يكفيه لشراء عيش حاف ، له ولأفراد أسرته المكونة من سبعة أفراد . . تزداد اختناقًا . . تغلقه . . فى عجلة رحت تحمل (فنجال القهوة) الذى سقط أحلى ما فيه فجأة . . كأشياء كثيرة أسقطتها من حساباتك . .أهمها ، وأجملها عندك . . تحقيق أحلامك التى استيقظت لتوها ؛ كلما سمعت صوت هذا الرجل ، فتظل تستصرخك . . ترجوك أن تغلق على صوته . . تعاود فتح التلفاز . . يعاود الخروج إليك . . تصرخ فى وجهه صراخ المذبوح :

- كفاك وعوداً . . كفاك كذبًا . .

تمسك (بريموت) تلفازك ، الذى عاود نومه من جديد ، تحول القناة . .تلو القناة . .تلو القناة . .تلو القناة . .

- عجبًا ما هذا . . ؟ !

تقولها فى آلم وحسرة ؛ فكل القنوات المصرية تجدها تتسابق تتصارع . . تتناحر ؛ فى بث حديثه ووعوده التى لم يزل يقولها وهو منتشٍ . . وسعيد . .

تغلقه؛ بعد أن قررت أن تترك له البيت بأكمله؛ بعد أن تملّكه واستعمره هو الآخَر..

- ما هذا..؟!! ولماذا..؟!! وأين ذهبوا..؟!!

رُحت تسأل نفسك في صمت؛ بعد أن رأيت الشوارع خالية تمامًا من المارة.. تسمرت قدماك أمام مقهى (القاهرة ٢٠١٠) الممتلئة عن آخرها بالزبائن الحالمين.المتوهمين بغد مشرق، راحت أفواههم تعمل في آلية منتظمة (تقزقز لبًّا صينيًّا) وهم يحدقون في وجه التلفاز منصتين لحديثه:

- وسوف أقوم بتعيين كل الخريجين.. أكررها على حضراتكم كل الخريجين.. إناثًا وذكوراً.

في بطء شديد، وحسرة أشد رحت ترفع يدك لتتحسس رأسك التي انتحر فيها الشعر الأسود من كثرة الانتظار..

- وسوف تدخل الكهرباء كل قرى مصر، وسوف أصدر قرارًا بعلاج كل المرضى.. نعم كل المرضى، على نفقة الدولة، ولن أستثني أحدًا و......و.....و.......و.......و......

تصفيق.. تصفير.. تهليل.. راحت هتافاتهم تزلزل الأرض من تحت قدميك.. رياح التفكير في التغيير تداهمك.. تصرخ فيهم بما تبقى لك من قوة:

- كفاكم وهمًا.. خداعًا.. انتظاراً..

لم يلتفت إليك أحد.. لن يلتفت إليك أحد.. تنكس رأسك.. لم يعد لديك ما تقوله؛ بعد أن ماتت على شفتيك الكلمات.. كل

الكلمات.. تشرد وأنت تنظر للسماء المكللة بالغيوم..

- حرام علينا الانتظار.. حرام علينا الانتظار..

رحت ترددها وأنت تحدق في صدر السماء.. تجد نفسك مدفوعًا وبقوة لترك المكان.. أي مكان ليس فيه صوته، ووعوده الكاذبة، حتى وجدت نفسك داخل مقابر مدينتك، حيث يعمها السكون والهدوء.. الهدوء المميت..

هبت عاصفة ترابيَّة شديدة فجأة، حاملة في تثاقل شديد صوته الزاعق الذي اخترق (طبلتيْ أذنيك) عن عمد.. في عصبيَّة شديدة، رحت تضع يديك الاثنتين فوق أذنيك.. لم تزل تسمع الصوت الزاعق.. عدت تضغط وبقوة فوق (طبلتيْ) أذنيك.. يتسلل صوته المسموع وبقوة داخل أذنيك.. رحت تصرخ فيه:

- كفى.. كفى.. حرام عليك.. حرام عليك..

بعيون أجهدها الحزن، ويسكنها الأمل، ويقتلها طول الانتظار رحت تتحرك عن يمينك وعن يسارك، ومن أمامك ومن خلفك تبحث.. تفتش عن مكان.. أي مكان ليس فيه هذا الصوت، أو عن مهرب يخلصك من ذلك الصوت..

- (هنا.. هنا.. تعال هنا.. لا تتردد كثيرًا.. هنا الخلاص.. هنا الأمان.. هنا النجاة..هنا الحريَّة بمعناها الصحيح.)

جاءك الصوت من بعيد، ذلك الصوت الذي يبعث الدفء والطمأنينة في حنايا نفسك.. رحت تحدث نفسك في ذهول:

- صاحب هذا الصوت ليس بغريب عني.. نعم هو ليس بغريب عني..

- (هنا.. هنا.. تعال هنا.. لا تتردد كثيراً.. هنا الخلاص.. هنا الأمان.. هنا النجاة.. هنا الحريَّة بمعناها الصحيح.)

عاد الصوت الهادئ الحنون يناديك من جديد.. تهمس في ألم، وأنت تنخرط في بكاء مكتوم:

- آه ه ه ه ه ه.. إنه صوت أبي الذى مات (بحسرته) دون أن يتحقق حلمه المنشود، مات بعدما كان يردد دوماً:

- (أدعو الله تعالى أن آخذ حقي..لا..لا..بل جزءاً بسيطاً ضئيلاً من هذا الحق المنهوب..المسروق في هذا الوطن الذى أعشق كل ذرة من ذرات ترابه)

- (هنا.. هنا.. تعال هنا.. لا تتردد كثيراً.. هنا الخلاص.. هنا الأمان.. هنا النجاة..هنا الحريَّة بمعناها الصحيح.)

تجد نفسك تسرع.. وتسرع ثم تتوقف لتحدث نفسك:

- هنا.. كان أبي مدفوناً..

تعود وتسرع.. وتسرع وأنت تردد صارخاً بأعلى صوتك:

- أين أنت يا أبي..؟! أين أنت يا أبي..؟! لقد أنستني أيامي وأحلامي التي ما زلت أسعى لتحقيقها، اسمي ومكان قبرك.. أين أنت يا أبي..؟!

- (هنا.. هنا.. تعال هنا..لا تتردد كثيراً..هنا الخلاص..

هنا الأمان.. هنا النجاة..هنا الحريَّة بمعناها الصحيح)

تقف أمام قبره المبتسم.. رويداً.. رويداً.. راحت تهدأ أنفاسك المتلاحقة.. تجد نفسك- كما تعودت كلما بدر منك خطأ- تمسح على (التربة) وأنت تردد فى تمنٍّ:

- سامحنى يا أبى.. سامحنى يا أبى..

- (هنا.. هنا.. تعال هنا.. لا تتردد كثيراً.. هنا الخلاص.. هنا الأمان.. هنا النجاة..هنا الحريَّة بمعناها الصحيح)

فى سرعة جنونيَّة، رحت تنبش قبر أبيك، حتى وصلت إلى بابه الذى ما إن وضعت يدك عليه حتى انفتح على مصراعيه.. مبتسماً.. مرحباً بقدومك.. باكيًا.. حزينًا.. رحت تحدق فى رفات أبيك.. سريعًا.. قويًّا.. يدخل من باب القبر هواء عاصف، محملًا بصوته الزاعق ووعوده الكاذبة، التى لم تتوقف بعد..

- ورائى.. ورائى.. حتى إلى هنا..

تقولها فى انهزاميَّة.. تلتفت إلى أبيك.. أقصد إلى رفات أبيك.. تجدها قد هربت تمامًا من قبره.. الصوت الزاعق جعلك تتقافز فى غيظ.. جعلك تهيل التراب وأنت تعيد على نفسك بعض كلمات أبيك:

- (هنا الخلاص.. هنا الأمان.. هنا النجاة.. هنا الحريَّة بمعناها الصحيح)

ومن خلفه باب القبر الذى رحت تغلقه على نفسك جيداً والذى اختفى معه الصوت تمامًا.

العم حسن وعجلة القيادة..!!

جلس العم "حسن" على الكرسى، قابضًا بكل ما أوتى من قوة على عجلة القيادة، وهو يحدث نفسه فى همس:

- ماذا حدث لك يا حسن..؟!! لقد صرت لبانة سهلة المضغ فى أفواه زملائى السائقين، لقد صرت أضحوكتهم، وحكايتهم رغم أن كل الحكايات لها نهاية، حتى إن راكبى الميكروباص يجلسون قلقين طيلة الطريق، بعد أن يقرءوا الفاتحة، بل ويظلون يتضرعون إلى الله منذ خروج العربة إلى أن يصلوا إلى القاهرة فى أمان وسلام. ماذا حدث لك يا حسن..؟!! أما كنت تحلم ليل نهار بالجلوس هنا على كرسى القيادة، تتحكم فى سير السيارة كما تشاء، بعد أن كنت تابعا للحاج "محمد" رحمه الله، وبعد أن كنت تقف خارج العربة، تصرخ فى وجوه المارة:

(مصر.. مصر.. مصر يا أستاذ..؟!! مصر يا ست..؟!!) .

وعندما تنطلق العربة بعد اكتمالها، تمد يدك تلم الأجرة من الركاب، وفي نهاية اليوم تخرج (الجردل) و (الفوطة) الصفراء التي أراك دومًا تجفف بها عرقك، تغسل السيارة جيدًا.. تجعلها على (سنجة) عشرة، ترى ويرى فيها الآخرون وجوههم، كما طلب ويطلب منك دومًا الحاج "محمد".. تغسل العربة من الداخل والخارج، مسموح لك أن تلمس كل العربة، أن تنام بداخلها، شريطة ألا تلمس "الدراكسون". المرة الوحيدة - فقط - التي جلست فيها على كرسي القيادة، وأمسكت - بقوة - عجلة القيادة، عندما غافلت فيها الحاج "محمد" وطلبت من الشاب "خالد" المصور الذي يجوب الشوارع والحدائق ليل نهار، واضعًا الكاميرا في رقبته، وهو يردد: (صورة.. صورة) لم تترك عجلة القيادة التي التصقت بيديك، رغم إعلان الشاب "خالد": (خلاص)

وجاءت اللحظة المرجوة، تلك اللحظة التي حلمت بها ليل نهار، لحظة خروج الصورة التي سوف (تبروزها).. بعد أن رُحت تتخير أفضل الأماكن لتضعها فيها، يراها الداخل إلى بيتكم، وقفت ترى حلمك وهو يتقطع قطعًا صغيرة ويرمي به على الأرض، عندما جاء الشاب "خالد" بالصورة فلم يجدك وتسلمها بدلا منك الحاج "محمد" الذي لم يرحمك، ولم يرحم حلمك، وراح يمزقها على مرأى من الجميع، كعقاب لك على عدم سماعك كلامه، ورغم ذلك ظل الحلم يدق باب منامك كل ليلة في موعده.

-٢-

هرول الحظُّ- على غير العادة- يدق بابك دقات كثيرة متتالية، قمت في تثاقل شديد وضيق أشد بفتح الباب، ليخبروك بموت الحاج "محمد" المفاجئ.. يوم.. اثنين.. ثلاثا.. سبعا.. ثم عاد الحظ يدق بابك؛ ليخبرك أن أرملة الحاج "محمد" تعرض عليك شراء (الميكروباص) بأى ثمن تحدده، بل وتعطيها الثمن بالطريقة التى تناسبك، فأنت أحق بها من غيرك، فقد مات الحاج "محمد" دون أن يتحقق حلمه بإنجاب عيل يحمل اسمه، ويقود العربة من بعده. فى ليلة وضحاها جلست على عجلة القيادة، كما كنت تحلم بذلك دومًا.. ماذا حدث لك يا حسن..؟!! لماذا لم تعد قادرًا على تحمل المسئوليَّة..؟!! ولماذا يداك ترتعشان دومًا وأنت تقبض على عجلة القيادة..؟!! ولماذا كل شيء داخل ميكروباصك أصابه العطل..؟!! الكاسيت يرفض وبشدة إدخال الشريط فى جوفه رغم أنك قمت بإصلاحه مرات عدة..؟! حتى الراديو لم يعد يبث الأخبار الصحيحة، والكراسى قد تآكل جلدها، ونوافذ الميكروباص إذا ما أغلقت لا تفتح، حتى سقفها صار منخفضًا، فمن أراد الركوب يدخل منحنيًا، ويخرج أيضًا منحنيًا، وما زاد وغطى عُطْله الدائم والمستمر، فالأسبوع الماضى تأخر أحد المحامين عن جلسته، وحُبس موكله الذى لا ذنب له، ومن ثلاثة أيام فقط تأخر أحد عاملى مصنع النسيج عن عمله، وتم خصم ثلاثة أيام من راتبه، رغم أن راتبه كله لا يكفيه لأكل (عيش حاف) هو وزوجته وأولاده السبعة،

والطالب الذى تأخر عن دخوله الامتحان- أول من أمس- قرابة الساعة، حتى المريض الذى يركب معك يزداد ألمًا لسيرك البطىء، لقد صار الميكروباص كعلبة سردين، رغم أنى اقترضت كثيراً من أجل إصلاح شأنه، ماذا أفعل... بعد أن سخر منى بعض زملائى من السائقين..؟!!، بل ووصل بهم الأمر أن يطالبونى أن أعتزل القيادة، وأجلس فى البيت لأستمتع بما تبقى لى من أيام، فى مشاهدة المسلسلات والأفلام، وقراءة الصحف اليوميَّة، كيف هذا..؟!! وهم يعلمون قدرى ومكانتى، فأنا أقدم سائق فى هذا الموقف، بل وأكبرهم سنًّا، هم يريدون لى نهاية مشابهة تماماً لمن كان قبلى، فما من أحد مات فى حادث أليم أو ترك مهنة القيادة إلا ولم يعد له حس أو وجود، لن يذكره أحد، وإن ذكره يذكره بما يكره، علىَّ أن أجد حلًّا.. حلًا سريعًا وموفقًا.. حلًا أرتضيه، ويحفظ ماء وجهى؛ حتى يظل اسمى يتردد على الأفواه- رقم ٨٢ عم حسن.. تفضَّل يا ريس. وقف أمامه أحد السائقين ليعطيه (البون) الورقى إيذانًا بالتحرك، بعد أن اكتمل الميكروباص.أدار عم (حسن) محرك سيارته الـ(٨٢).. كما يحب أن يناديه الجميع بهذا الرقم الذى صار مقرونًا باسمه، فمنذ أن اعتمد كسائق، ومنذ أن جلس- لأول مرة- على كرسى القيادة جاء بأحد الخطاطين المهرة، وأمره أن يكتب على جوانب العربة الأربعة (١٩٨٢) إنه العام الذى تولى فيه قيادة عجلة العربة.

- توكلنا على الله..

قالها عم (حسن) وهو يتحرك، ومن خلفه ارتفعت أيادى الركاب تدعو بسلامة الوصول.

-٣-

-تضع المفتاح هنا، تحركه قليلًا جهة اليمين، قدمك اليمنى ما تزال هنا على الفرامل، وهذا هو الدبرياج، وعند التحرك بالسيارة، ترفع رجلك قليلًا وببطء من فوق الدبرياج، وعينك أمامك هكذا على الطريق، إياك وأن تنشغل بغير الطريق نحن الآن نسير على الأول، فإذا ما أردنا أن نزيد من سرعة العربة، نقوم بالتغيير هكذا، وإن أردت أن تزيد من سرعتها حتى تأتى بالثالث، افعل هكذا.. افعل هذا وأنت تنظر أمامك كن منتبهًا للطريق جيداً، وإذا ما أردت أن تدخل ناحية اليمين افعل هذا.. أولًا أعط إشارة جانبيَّة؛ حتى يعرف القادم من خلفك أنك سوف تدخل جهة اليمين، انظر للطريق جيداً وعليك أن تحفظه كاسمك، هناك (مطب) صناعى قادم، لكى تستقبله افعل هذا، هدئ أولًا من سرعة العربة، حتى تجتازه بنجاح، وبعدها عد لما كنت عليه، أتفهمني جيداً يا جلال..؟!! رد عليه ابنه الوسيم "جلال" وهو ممسك بعجلة القيادة:

– نعم.. نعم يا أبى..

منذ طلعة النهار، والحاج "حسن" قد أجلس بجواره ابنه "جلال" وراح يعلمه في بطء وتمهل فنون القيادة، فقد أخذ الحاج "حسن" بنصيحة زوجته، عندما قالت له بعد أن تناول وجبة العشاء ليلة أمس:

(لن تجد أفضل من ابنك؛ لتجلسه مكانك على كرسى القيادة، حتى يظل اسمك مقرونًا باسمه طيلة حياتك، وبعد.. بعد(الشر) بعد مماتك)

صار اسم "جلال" يتردد دومًا على كل ألسنة الركاب وسائقى السيارات، فلم يترك أباه قط، بل يظل ملاصقًا له طيلة النهار، يلم الأجرة وعينه على كرسى القيادة، بل كلما جلس والده مع زملائه من السائقين، تجده يجلس أمامه يراقب حركاته، ويستمع لحديثه جيدًا كتلميذ، حتى صار "جلال" ظلًا لأبيه، أينما تحرك والده تحرك هو، حتى عرف عنه أنه السائق المنتظر، والحق يقال أن الحاج (حسن) لم يبخل عليه بشيء.. لا فى فنون الحياة، ولا فى فنون القيادة، ظل يقومه ويؤهله للجلوس على كرسى القيادة.

-٤-

- مصر.. مصر.. مصر يا أستاذ..؟!! مصر يا ست..؟!!

وقف (جلال) منذ طلعة النهار بجوار الميكروباص الجديد بعد أن باع أبوه القديم والجديد واستدان كعادته لشراء هذا الميكروباص الجديد الذى كتب عليه ابنه من جوانبه الأربعة:

(٢٠١١ من أجلك أنت أيها الراكب)

الغريب والعجيب حقًا، أنه منذ جلوسه على كرسى القيادة والركاب يرفضون وبشدة الركوب معه، لأسباب كثيرة، أهمها ضآلة حجمه غير المرئى وهو جالس على الكرسى، رغم أنه يضع أسفل منه ثلاث أو أربع (مخدات).. ورغم ذلك، تجده يقف ويصرخ فى وجوه المارة فى تمن:

- مصر.. مصر.. مصر يا أستاذ..؟!! مصر يا ست..؟!!

التالى..!!

مهداه.. إلى أمى التى تتزوج دومًا دون إرادتها...!!

-١-

تَزَوَّجَتْه مرغمة . .

صار لنا زوجَ أم ؛ فور موت أبى فى حادث أليم . . صرت أسمع أمى ، وهى تئن باكية ليل نهار . . رحت أسألها فى خوف وهمس ، رغم عدم وجوده :

- لماذا لم ترفضيه زوجًا . . ذلك الرجل الذى منذ دخوله بيتنا يُبكيكِ ليل نهار دون وجه حق . . ؟ !

قالت وهى تمسح دموعها ، التى لم تتوقف :

- يا بنى ليس باستطاعتى الرفض ، وكيف أرفض وهذا قانون مدينتنا ، من يمت زوجها تزف إلى غيره و . . . .

قاطعتها فى خوف شديد ؛ بعد أن رحت أنظر هنا وهناك :

- ولماذا هذا الرجل تحديداً..؟!! لماذا يا أمى..؟!!
تبسمت ابتسامة لا طعم لها ولا لون، ثم راحت تقول فى ألم:
- ليس لى الاختيار.. ليس لى الاختيار.. فأملك مرغمة.. مرغمة أمك يا بنى..

-٢-

لم يكفه أنه أطفأ عن عمد ما تبقى من جمال أمى _ذلك الجمال الذى كان يحكى عنه كل سكان مدينتنا.. صغيرها وكبيرها، بل والمدن المجاورة _بل واستولى على كل ما تملكه وتدخره من أموال بنكنوت، وذهب، وأفدنة من أجود الأفدنة قد ورثتها عن أبويها..
عدت أسألها خلسة فى همس:
- أمى.. لماذا لم ترفضى لحظة أن أخذ كل ما تملكين..؟!!
ردت فى أسًى:
- وكيف يتسنى لى الرفض، وأنا لا أملكها..؟!!

-٣-

- هيا.. اشربوا الآن..
- حاضر..
- هيا.. لتأكلوا..
- حاضر..
هيا.. ادخلوا الحظيرة؛ لتناموا..
- حاضر..
- هذا ممنوع..

- حاضر . .

- وهذا أيضًا . .

- حاضر . .

لم يكفه كل ما فعله بأمى ، وإنما اتجه بدفته ناحيتنا ؛ بعدما سمع حديثى الهامس ليلًا مع إخوتى ؛ وبعد أن اتفقنا فى الصباح الباكر أن نثور عليه ، فصار يتحكم فى خروجنا ، نأكل ونشرب وننام وقتما يشاء ، بل وصار دخولنا إلى مكان الراحة بموعد ، صرنا ضعفاء ؛ بعد أن نحلت أجسادنا ؛ من جراء أننا لم نعد نأكل إلا وجبة واحدة فقط يوميًّا ؛ حتى كدنا أن نموت جوعًا .

لقد جعلنى وإخوتى نسير على أربع ؛ بعد أن أمات بداخلنا حريَّة الاختيار .

-٤-

صرنا لبانة سهلة المضغ فى أفواه نساء مدينتنا والمدن المجاورة . .

- ارفع رأسك يا أخى . . فإلى متى ستظل وإخوتك طوع إرادة زوج أمك . . ؟ ! !

قالها أحد سكان المدينة المجاورة ؛ بعد أن رآنى أمشى مُطَأْطَئَ الرأس فى انحناء أبدى ، لم أجد ما أرد به عليه ، غير أننى رحت أعاود سيرى فى انحناء أبدى .

-٥-

جاء من يدق بابنا ؛ ليخبرنا والسعادة تغمر وجهه :

- ارفع رأسك يا أخى . . لقد انقشعت الغمة . .

قلت وإخوتى مستفسرين لأول مرة، منذ دخول زوج أمى إلى البيت :

- ماذا تقصد.. ؟!!

- لقد مات زوج أمكم فى حادث أليم..

التفتنا إلى بعضنا ، دون أن يتفوه أحدنا بكلمة واحدة..

عاد الرجل يقول فى صراحة وثقة :

- إنها النهاية الحتميَّة لكل ظالم..

وجدتنى أقول فى انحناء أبدى :

- ترى من التالى.. من التالى الذى سيصبح زوجًا لأمى الست "مصريَّة"..؟!!

لم يسقط الحجر..

مدرسة النصر

وصل الأستاذ "عمران" إلى مدرسة "النصر الابتدائيَّة" متأخراَ عن موعده، في أول يوم دراسي، بعد إجازة نصف العام، وبعد أن هدأ القصف الإسرائيلي المتواصل على مدينة "غزة" الفلسطينيَّة..

وطأت قدماه باب فصل ١ / ٦، ودون أن ينظر إلى الأطفال. راح يقول والعرق يتساقط من وجهه:

- صباح الخير يا أولاد..

- صباح الخير يا أستاذ..

نظر إلى مصدر الصوت، إنها "أمل" الوحيدة داخل الفصل..

في ذهول راحت عيناه تتقافزان بين "التخت" ضاربًا أخماسًا في أسداس، باحثًا عن سبب واحد لغياب باقي الأطفال، ولكنه لم يصل إلى إجابة واحدة..

التفت إلى "أمل" التي ما تزال واقفة، سألها في عجب:

- أين باقي التلاميذ..؟!

ردت "أمل" في قوة:

- رحلوا منتصرين إلى جنة الخلد..

تجمد المدرس في مكانه، وقد أخذته المفاجأة..

سألها في أسىً:

- ومن وضع هذه الأوراق التي كُتِبتْ عليها أسماؤهم، فوق أماكنهم..

ردت في قوة:

- أنا يا أستاذ..

- لماذا..؟!

ردت والدموع تغسل وجهها:

- (ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون)

الصمت الحجري من حوله راح يزداد، بعدما عقدت إجابتها لسانه، عاد يحدق فيها تارة، ثم يحدق في الكراسات القابعة أمامه في صمت تارة أخرى، تلك الكراسات التي أخذها معه إلى البيت؛ كي يقوم بتصحيحها، وإعطائهم الدرجات التي يستحقونها في امتحان نصف العام..

الدموع في عينيه تود الفرار، حبسها بشدة، قامت "أمل" من مكانها، أمسكت بكراريس أصدقائها، راحت تضع الكراسة تلو

الأخرى فوق "التخت" وهي تقول:

- "منصور" عشرة على عشرة..

"منتصر" أنت الآخَر عشرة على عشرة..

" فارس" تسعة ونصف من عشرة..

"عزة" تسعة من عشرة..

راحت تلف على أماكنهم جميعًا، تضع عليها كراساتهم، مبتسمة تقرأ عليهم نتيجة إجاباتهم، حتى انتهت، ثم عادت تجلس في مكانها في الصف الأول..

تعجب المدرس مما فعلته "أمل"، وماذا تقصد به..؟!

همس في حيرة وحزن:

- ماتوا جميعًا، ولم يتبق غير "أمل" تلك الطفلة المشاكسة العنيدة.. الصلبة..؟!

قامت "أمل" من مكانها، قاصدة السبورة، راحت تنظفها تمامًا، ثم أمسكت بـإصبع الطباشير ذى اللون الأخضر، الذى لم يتضرر بفعل القصف الإسرائيلى، رسمت قوسين كبيرين، وكتبت داخلهما كلمة (الأمل) ثم وقفت أمام مدرسها وأعطته إصبع الطباشير، تناوله المدرس في عجب من أمرها، طالبته أن يشرح لها معنى كلمة (الأمل).. فهم المدرس مقصدها، تبسم في وجهها، مسح على رأسها، ثم اتجه إلى السبورة......!!

هواؤهم..وهواؤنا..!!

"مفتتح"

(إننى أشعر بالأسف ؛ لأننى لم أتخلص من الفلسطينيين كما حاول هتلر أن يفعل مع اليهود ، وإننى أتعهد بأن أحقق ذلك)

(شارون رئيس وزراء إسرائيل الأسبق)

-١-

أرسلت إلىَّ صديقة عزيزة مسئولة فى الحكومة الفلسطينيَّة من غزة رسالة قصيرة عبر التليفون المحمول تقول فيها :

(لقد دمر الغزاة الإسرائيليون كل شىء فى غزة الحبيبة كل شىء.. لا ماء.. لا كهرباء.. لا تليفونات.. أخشى أن يمنعوا عنا الهواء..)

ولأول مرة فى عمر صداقتنا لا أقوم بالرد على رسالتها.. على

الأقل برسالة مماثلة، كيف..؟ ولماذا..؟ لا أدرى..

ترى هل لأننى لم أجد جدوى من كثرة ردى عليها..؟!!

أم لأننى لم أجد صدًى لما أكتبه عن فلسطين عبر صحيفتنا اليوميَّة ذائعة الانتشار..!!

أم يرجع السبب الحقيقى فى عدم ردى إلى ذلك التهديد المباشر من رئيس التحرير فى آخر لقائه بى داخل مكتبه:

(اسمع يا أستاذ ناصر.. أطالبك للمرة الأخيرة بعدم كتابة أى شىء عن فلسطين، والمقاومة الفلسطينيَّة، وعن كتائب فتح، وحماس، أقولها لك بالعربى، والفرنساوى، والإنجليزى، وبجميع لغات العالم.. أغلق ملف كتاباتك عن فلسطين.. أنا لا أريد إثارة، أو بلبلة.. يكفينا مشاكل الجريدة التى لا تنتهى، علينا أولًا حلها وبعد ذلك نحل مشاكل الغير)

هزنى الموقف..

وقفت للحظات غارقًا فى عرقى المتساقط من وجهى بغزارة، وأنا أفكر فى هزيمتى..

لقد فعل النازيون من قبل شيئًا كهذا، عندما حاصروا (لينينجراد) فى الحرب العالميَّة الثانية لمدة ستة أشهر كاملة، ظلت المدينة تقاوم خلالها..

لقد جاء حصار "غزة" وقصفها الآن استكمالًا عسكريًّا للحصار السياسى والاقتصادى الذى نظمته أمريكا، حصار، دمار، خراب.. من أجل خطف جندى إسرائيلى واحد، من يصدِّق هذا..؟!

-٢-

استيقظت من نومى- وكعادتى- فإن أول شيء قمت بعمله أمسكت تليفونى المحمول القابع بجوارى من ليلة أمس فوق (الكوميدينو) .. أجد رسالة جديدة، أفتحها على الفور.. إنها من صديقتى بغزة، تقول فيها:

(ستة أشهر منذ أن انقطع الماء، والكهرباء.. انتشر فيهم المرض بسرعة مقلقة، وكثرت حالات الوفاة، ورغم ذلك.. المقاومة لم تتوقف.. ملحوظة مهمة جداً.. ما تقرؤه.. وما تشاهده عبر التلفاز.. ألم يحرك فيك شيئًا لتكتب عنه..؟!!! أخشى أن تكون أنت الآخر محاصراً)

كلماتها خناجر حادة راحت تذبحنى فى بطء.. بطء شديد.. .على الفور وجدتنى أردد جملتها..

"أخشى أن تكون أنت الآخَر محاصراً"

رحت أخطو خطوات بطيئة متكاسلة داخل حجرة نومى حتى توقفت أمام المرآة..

رحت أتأمَّل انكسارى..

يشدنى الجرح الغائر- القديم- فى وجهى الذى تسبب فيه جندى من جنود الأمن المركزى، عندما تزعمت مظاهرة طلابيَّة ضد الحصار المفروض على حريَّة الطلبة

" أخشى أن تكون أنت الآخر محاصراً "

صدى كلاماتها راح يطاردنى بشدة..

تركبنى كل الشياطين..

ألتفت ورائى..

تخرج الورقة النائمة في هدوء بجوار التليفون، المدون بها طلبات زوجتى لسانها، قبل أن تغادر البيت إلى عملها. .أقرأ سطورها

"فلوس الإيجار..

والبقال..

ودروس الأولاد..

وحضانة البنت"

-٣-

وأنا فى حفل افتتاح مهرجان القاهرة السينمائى الدولى- بعد أن حولتنى رئيس التحرير من القسم السياسى إلى القسم الفنى- جاءتنى تلك الرسالة..

(الغزاة فى طريقهم لصنع نصف كرة من الصاج الصلب بحجم مدينة "غزة" كى يحجبوا عنا رؤية السماء ويمنعوا أيضًا عنا الهواء.. تحرك.. تحرك أرجوك وأخبرنى لآخر مرة ماذا نفعل..؟! ملحوظة مهمة جدًا.. المقاومة لم تتوقف..)

هل وصلت بهم الجرأة، والوقاحة أن يمنعوهم من استنشاق الهواء..؟!! ترى هل لهم بعد آخر فى أن يمنعوا الهواء من أن يداعب علم فلسطين..؟!!

يجب أن أفعل شيئًا..

نعم أى شيء مهما كان الثمن..

ولكن ماذا على أن أفعل.. وأنا محـ......؟!

تصفعنى كلماتها التى تشعرنى بالعجز والخجل..

(تحرك وأخبرنى لآخر مرة ماذا نفعل..؟!)

على الفور وجدتنى أمسك الموبايل.. ورحت أكتب إليها رسالة بعد طول غياب:

عزيزتى / ....

أقترح عليكم أن ترسلوا إلى جميع رؤساء وملوك الدول العربيَّة تطالبونهم بتعبئة هواء جاف.. نعم هواء جاف داخل كبسولات معبأة داخل علب من الدواء كعلاج مؤقت للاختناق والحصار.. دمت لنا.. ودامت دولتكم دولة العرب فلسطين.

علىَّ فقط فعل شيء آخر، ويحدث ما يحدث، أن أكتب هذه الرسالة باستفاضة فى الصحيفة، لعل الماء الراكد بين الدول العربيَّة يتحرك

-٤-

أجلس حزينًا داخل البيت؛ لأشاهد الدماء الزكيَّة العربيَّة وهى تسيل..

- آدى اللى خدناه.. إيه اللى فادك..؟!

تصفعنى كلمات زوجتى من الخلف..

لقد أوقفنى رئيس التحرير عن العمل لحين التحقيق معى؛ بسبب كتابة مقالى الأخير بعنوان:

(توحيد الهواء)..

تليفوني المحمول يناديني..

أمسكته بعد أن عرفت بأن هناك رسالة جديدة.. فتحتها

(ماذا فعل بنا هواؤكم المعبأ داخل كبسولاتكم الدوائيَّة..؟! لقد تأكد لنا أن هواء الدول العربية غير مناسب لنا، وأيضا غير مناسب للمقاومة الفلسطينيَّة.. أتدرى لماذا..؟! لأن هواءكم أصابنا، وأصاب المقاومة بالتبلد.. التبلد الشديد.. سرنا نشاهد ما تفعله إسرائيل، ونقف لنضحك.. نعم نضحك وبشدة.. نصفق لهم بشدة.. بل والبعض منَّا يساعدهم فيما يفعلونه.. شكراً.. شكراً لكم ولهوائكم..)

لم يسقط الحجر..!!

الرجل الغريب الذى لا يعلم أهالى القرية عنه شيئًا كان حديثهم.

رجعت إلى البيت، كانت أمى تلمّ أطباق طعام العشاء من أمام أبى، وجدى.. دخلت البيت سيرًا على أطراف أصابعى حتى لا يشعر بى أبى، فيضربنى مثل المرّات السابقات بسبب اللعب فى الشارع مع العيال..

سمعت أبى يتحدث إلى جدى عن الرجل الغريب، تواريت بالقرب منهما دون أن يشعرا بى، ودون أن ترانى أمى، ورحت أستمع لحديثهما لعلنى أعرف منهما المزيد عنه وعن شخصيته..

قال أبى لجدى وهو يرتشف الشاى:

- حيعمل إيه بس الراجل ده بالبيوت اللى اشتراها دى كلها..

رد جدى عليه وأصابعه تحك أسفل ذقنه:

- بيقولوا أنه اشترى نصف بيوت القرية..

اندفع أبى غاضباً :

- يا حاج دا بيدفع أى ثمن يطلبه منه صاحب البيت . .

رد جدى بصوت حزين وعيناه على الموقد المشتعل أمامه :

- يا ترى الدور على مين . . ؟

وإيه آخر البيع ده . .

***

الرجل الغريب كان حديثنا ونحن نلعب داخل أرض عواد القصير . .

فبعد أن نلمّ علب السجائر الفارغة من الشوارع، نصنع منها بيوتًا جميلة، وشوارع وأماكن نلعب فيها أفضل بكثير من البيوت، والأرض التى اشتراها ذلك الغريب . .

فجأة ظهر أمامنا شيء حجب الشمس عنا، توقفت أيدينا عن بناء البيوت، رحنا ننظر إليه . .

شكله مخيف لم نر مثيلا له فى القرية، ولا القرى المجاورة، تراجعنا إلى الوراء خطوات، ازدادت ضربات قلوبنا، تبادلنا النظرات فيما بيننا، فتح فاه مبتسمًا، الخوف ازداد بداخلنا، فمه يكاد أن يبتلعنا جميعًا دفعة واحدة ولا يظهر لنا أثر، صرخ واحد من بيننا :

- هوه . . هوه الرجل الغريب . .

يبدو أن الكلمة قد أغضبت الرجل، كشّر عن أنيابه، رفع حاجبيه، رفع قدمه اليمنى إلى أعلى وأنزلها فوق بيوتنا الورقيّة بغضب . .

تهدم حلمنا . .

قال كلامًا لم نفهم منه شيئًا سوى أن هذا المكان هو صاحبه، نظرنا إلى بعضنا البعض همسنا فى صوت واحد:

(عوّاد باع أرضه)..

أسرعنا بالفرار من أمامه..

جلست وعيال الحارة، وكأننا رجال بشنبات نتناول فيما بيننا حديث ذلك الرجل الغريب..

قال "عرفة" أكبرنا سنًا وأجرأنا قولاً وفعلًا:

- نضربه بالحجارة فى رأسه..

قال "محمد" فى سعادة:

- صح وما فيش أكتر من الحجارة عندنا بعد أن هدم كل البيوت اللى اشتراها..

صرخ السيد فرحًا:

- أيوه وأنى حضربه بالنبلة بتعتى (ويا رب).. أخرم عينه غضبنا على هذا الرجل، وخوفنا الشديد منه جعلنا نوافق، فليس أمامنا شىء آخر..

اتفقنا أن ننتظره غدا بعد خروجه من بيته، ويتقدم "عرفه" ويضربه أولا ثم تتوالى ضرباتنا له بالحجارة من خلفه..

***

توارينا خلف أحد البيوت ننتظره..

خرج علينا، وقبل أن يتوغل بقدميه داخل شوارع القرية ليحدث ذعرًا بين أهلها، اندفع، بركان الغضب الساكن بداخل "عرفه"

مصحوبًا بصرخة غضب قوية سبقت رمى الحجر . .

شعر به الرجل فأمسك به قبل أن يرميه بالحجر . . "عرفه" بين يد الرجل كالفأر، يتحرك بجسده فى محاولة منه للهرب . . انتابنا الخوف والفزع من نظرات الرجل المتلاحقة، اندفعت الحجارة من بين أيدينا مصوبة نحوه، ولكنها لم تفعل به شيئًا، فقد ارتدت ووقعت على الأرض، بل إنه ضحك بشده ساخرًا منا . .

طرح "عرفه" على الأرض، داس بقدمه فوق رأسه، "عرفه" ما زالت أصابعه تقبض بقوة على الحجر . .

الرجل الغريب يزيد من قوة ضغط قدمه فوق رأسه، "عرفه" يبكى بشدة، يزيد الرجل من قوته يصرخ عرفه صرخات متتالية، تلك الصرخات رجت بيوت المدينة وأيقظت أهلها . .

أطبقنا صرخاتنا الواحد تلو الآخر - هذا آخر ما نملك - تجمع أهالي القرية، والقرى المجاورة . . تجمعوا من حول الرجل و"عرفه" . .

النسوة رحن يبكين ويرفعن أيديهن إلى السماء داعيات عليه .

الرجل الغريب ذو الأطوار الغريبة أخرج من جيبه سلسلة طويلة معلق فى آخرها نجمة سداسيَّة ظل يلفها على أصابعه ثم يفردها وهو يقول فى ثقة زائدة :

لو كان فيكم راجل ييجي يخلصه من يدى . .

القادمون من كل فج عميق نظروا إلى بعضهم فى صمت . .

الرجل يزيد من قوة ضغط قدميه . .

"عرفه" يصرخ من شدة الألم، لكن الحجر ما زال فى يده لم يسقط .

رائحة القدس..!!

• المشهد الأول:

جلس الأب حزينًا مهمومًا يفكر فى حلٍّ لما هو فيه... قطع عليه تفكيره بكاء ابنه الذى راح يشكو إلى أمه:

- ماما.. أنا بقالى خمسة أيام ما أخدتش مصروف..

- روح لأبوك..

- ما أنا كل ما أقول لبابا يخرجلى جيوبه لبره وبعدين يقولى لما ربنا يفرجها.

• المشهد الثانى:

أدار الأب مفتاح التليفزيون.. ظهرت المذيعة لتعلن على الملأ:

(نداء عاجل..

أخى المواطن.. أختى المواطنة..

من أجل المذابح الضارية فى فلسطين.. من أجل الأطفال الذين قتل آباؤهم..

تبرعوا ولو بجنيه واحد فقط.. على حساب رقم.....البنك.....)

● **المشهد الأخير:**

خرج الأب إلى شرفة بالكونته...

لمبات كثيرة حمراء، صفراء، خضراء تملأ الشارع من بدايته حتى نهايته..

هذه الإنارة من أجل فرح (ابن المعلم جعفر) تاجر الخردة المعروف.

صعدت الراقصة- شبه عارية تماماً- فوق خشبة المسرح

التصفيق، التصفير، التهليل يزداد..

لون جسدها الساطع عبر الأضواء، جعل الشارع يمتلئ عن آخره

الأوراق الماليِّة ذات المائة جنيه راحت تتساقط فوق رأس الراقصة.. راحت بدورها تدوس فوقها لكثرتها من حولها.

أغلق النافذة فى غضب حتى لا يرى هذا المشهد، لكنه لم يستطع إسكات بكاء طفله أو إيقاف ذلك النداء عبر التليفزيون.

فوق الأرض..تحت الأرض..!!

• تحت الأرض..!!

وطأت قدماه باب العمارة وهو يتأوه ألمًا من شدة التعب.. رفع قدميه فى تثاقل شديد متجهًا ناحية اليمين ثم راح ينزل درجات السلم إلى أسفل ليجد نفسه تحت الأرض فى البدروم، الظلمة الشديدة طوق حديدى راح يخنقه.. غاضبًا أنزل ما يحمله جانبًا.. أدخل أصابعه داخل جيبه.. أخرج علبة الكبريت النائمة فى صمت ودفء.. فتح بابها. .أخرج عودًا خشبيًّا كان يغطّ فى نوم عميق بجوار أصدقائه.. أشعله فتوهج مستيقظًا على الفور.. أخرج فاتح الباب.. دسه فى عين الباب ليستأذنه فى الدخول.. يعلن عن دخوله بعد أربع تكات.

تك.. تك.. تك.. تك..

وكأن الباب يقول له: ت.. ف.. ض.. ل..

يدخل فى فم الحجرة المظلم المفتوح عن آخره.. رمى بكيس البلاستك الكبير الممتلئ حتى المنتصف بعلب المناديل الورقيَّة جانبًا..أخرج عودًا خشبيًّا آخر بعد موت الأول بعد أن أعلن عن احتراقه بين إصبعيه..أشعل الشمعة الواقفة على (حيلها) فى انتظاره والتى تآكلت حتى المنتصف.. بعد أن استعملت أمه نصفها الأول تاركة له نصفها الآخر..

راح يتأمل الشمعة التى راحت تذوب خجلًا وكأنه يراها للمرة الأولى.. وقع بصره على الطبق الصاج المتربع فى شموخ بجوار الشمعة والمغطى برغيف العيش البلدى.. مد يده رافعًا (الرغيف) ليصطدم بحبات الفول الصلبة القابعة داخل الطبق والتى راحت تنظر إليه فى سخريَّة.. همس فى غيظ:

- فول..أو.. طعميَّة.. والطعميَّة من الفول..

التفت إلى أمه التى تغطُّ فى نوم عميق.. يسترجع كلماتها:

(معلش يا بنى احنا بنحرم نفسنا من كل حاجة عشان نركب عداد النور)

عاد ليتلفت من حوله داخل الحجرة الفقيرة فى كل شىء وكأنه يفتش عن شىء مفقود.. راح يقارن ما بين قوالب الطوب الأحمر المتراصة فوق بعضها البعض المصنوعة منها الحجرة وبين حبات الفول الجالسة فى كبرياء داخل الطبق والتى تتشابه تمامًا وإلى حد كبير بينها وبين قوالب الطوب.. وكأن هذه الحجارة

تنجب من بطونها كل ليلة تلك الحبات من الفول.. مد إصبعيه ليلتقط واحدة من حبات الفول.. راح يتحسسها جيداً مرات عديدة.. قربها إلى عينيه ثم راح ينظر إلى قوالب الطوب ثم راح يهز رأسه وهو يبتسم وكأنه قد تأكد الآن من حديث نفسه.. فى غضب طوحها فى وجه الحجرة فارتدت إليه ثانية داخل الطبق.. تلك الحجرة الوحيدة داخل البدروم والتى بنى جدرانها المعلم (صلاح) الجزار بعد أن طردهم صاحب البيت لتأخرهم عن دفع الإيجار قرابة العامين أو يزيد بعد موت والده الذى مات فى حادث..

جلوسهم داخل هذه الحجرة كان مشروطاً بخدمة الست أم (خالد) والتى سوف تقدمها إلى زوجات المعلم (صلاح) الأربع داخل العمارة من مسح السلم يومياً وغسيل السجاجيد وشراء احتياجاتهم من السوق كل هذا مقابل جلوسهم دون دفع إيجار

– آهههههههههههههههههه

تنهد (خالد) تنهيدة طويلة.. طويلة خارجة من أعماق قلبه لترتطم بجدران الحجرة فيعود إليه صداها آهات كثيرة..التفت إلى الشمعة التى ما زالت تبكى.. وتبكى فى حرقة بالغة من آلام حرقتها وكأنها تبكى على حديثه الهامس داخل صدره.. فى تثاقل شديد مد يده مستسلماً.. تناول العشاء خوفاً من موت الشمعة المرتقب وبعدها لا يستطيع رؤية حتى أصابعه.

● **فوق الأرض..**

- لأه.. لأه يا ماما..

- مش ممكن.. لازم تسمع الكلام..

الولد الذى فوق الأرض ما زال يجرى داخل الشقة هربًا من أمه التى راحت تلاحقه فى كل الأماكن ولم تستطع الإمساك به لبدانتها الواضحة.. قالت بعد أن هدها التعب:

- طيب إنت مش عاوز تسمع كلامى.. أنا حا وريك..

أسرعت بفتح باب الشقة.. خرجت.. مدت رأسها لأسفل وراحت تزعق فى ضيق:

- يا واد يا خالد.. إنت يا زفت..

انتفض (خالد) من مكانه واقفًا دون أن يكمل طعامه تاركًا الشمعة التى راحت تأكل نفسها والتى أوشكت على الانتهاء.. رفع رأسه إلى أعلى وراح يقول:

- نعم يا هانم..

- اطلعلى يا واد عاوزاك حالًا..

حدث نفسه فى ضيق بعد أن راح يضرب الأرض بقدميه:

- وهوًا ده وقته..!!

قالها فى همس وهو يسرع إليها.. تلتهم قدماه درجات السلم حتى وصل إليها فى الطابق الرابع.. وقف أمامها وهو يحاول أن يأخذ أنفاسه المتلاحقة.. ثم قال فى حياء وخجل شديدين وهو ينظر أسفل قدميه كما عودته أمه:

- نعم يا هانم..

- نضف رجليك كويس وادخل ورايا..

وطأت قدماه للمرة الأولى باب شقتها.. فهو كان يقابل الهانم على عتبة بابها دون الدخول إلى الشقة.. يتسلم منها الفلوس ويسلمها حاجاتها على عتبة بابها.. عيناه الذابلتان راحتا تحتضنان وبشدة محتويات الشقة.. نظر إلى قدميه اللتين غاصتا فى السجادة الطويلة.. طولها هذا يساوى حجم حجرته أو يزيد.. الضوء المنبعث بقوة جعله يرفع عينيه ناظراً إلى النجفة الكبيرة التى أكلت سقف الصالة.. تبسم ساخراً عندما تذكر شمعته التى تركها تحترق..

- إنت..

استيقظ من غفوته على صوت الهانم وهى تشخط فيه.. وجد نفسه يردد:

- ن.. نع.. نعم يا هانم..

- حمادة ابنى جوه الأوضه دى.. عاوزاك تمسكهولى..

- حاضر.. حاضر يا هانم..

دق.. دق.. دق..

- افتح يا حمادة بيه..

وقف كعمود إنارة مصلوباً أمام الحجرة يستأذنه فى الدخول..

- افتح وخش..

قالتها من خلفه الهانم..فتح الباب..ليجد (حمادة بيه) يقف فوق السرير وهو يتقافز سعيداً يعلو ثم يهبط وكأنه يجلس فوق

أرجوحة.. دون إرادته وجد قدميه تجرانه داخل الحجرة المتسعة جدًّا.. جدًّا.. راحت عيناه تحتضنان كل الأشياء.. لعب الأطفال بشتى أنواعها المترامية في أرجاء الحجرة وفوق بعضها من كثرتها.. المكتب الصغير الذى كثيراً ما تمنَّى أن يجلس عليه في يوم من الأيام.. وتلك الحقيبة الجلديَّة.. وقف مصلوبًا مشدوهًا أمام تلك الأشياء.. كم تمنَّى (خالد) أن يدخل المدرسة ليصبح واحداً من هؤلاء التلاميذ!! كم تمنَّى أن يرتدى زى المدرسة الذى يرتديه فقط كل ليلة في منامه!! كم تمنَّى أن يحمل حقيبته الجلد فوق كتفه مثل الأولاد الذين يقابلهم ويقابلونه كل يوم صباح مساء فى إشارات المرور وهو يبيع علب المناديل الورقيَّة!! تذكر قول أمه عندما فكر فى يوم من الأيام وحكى لها ذلك الحلم الذى يراوده كل ليلة..

(يا بنى احنا ما اتخلقناش للعلام.. احنا اتخلقنا للتعب والعذاب.. يا خالد إنت ابنى الوحيد يعنى أنت دلوقتى كبيرى.. يعنى انت مكان أبوك الله يرحمه.. وزى ما أنت شايف يا بنى احنا ازاى انطردنا من بيتنا واحنا علينا إيجار كام سنة متأخرين.. حتى فرشنا وكل عزالنا ما عرفناش ناخده.. خده منى صاحب البيت المفترى تمن الإيجار المتأخر.. يا بنى عشان خاطرى عشان تعيش فى الدنيا دى سعيد ما تحاولش تبص لفوق.. خلى بصتك دايمًا لتحت)

- أنا أهه.. أنا أهه..

صوت (حمادة بيه) يخرج قويًّا.. ليفيقه من حلمه..خطا خطوات بطيئة متثاقلة نحوه وما زالت عيناه على الأشياء من

حوله.. انقض عليه فارداً يديه ليكتشف أنه قد أمسك بالهواء ليقع بكل قوة فوق السرير.. على الفور شعر براحة لم يشعر بها من قبل.. تلك الراحة التى راحت تسرى بسرعة الصاروخ فى جسده النحيل.. تذكر (الحصيرة) التى أكلت من جسده الكثير والكثير.. وجد أصابعه تتحرك لتتحسس السرير ناعم الملمس..

- أنا أهه.. أنا أهه..

صوت (حمادة بيه) الساخر يخرج قويًا كحد السكين ليمزق أحلامه تمزيقًا..جاهداً حاول التحرك / التحرر من قبضة السرير الذى التصق بشدة بجسده النحيل رافضًا أن يتركه..

- أنا أهه.. أنا أهه..

قام متثاقلًا.. راح يخطو خطوات بطيئة متثاقلة خلفه وعيناه ما زالتا تتلفتان يمنة ويسرة تودعان حلمه المتربع داخل الحجرة.. وهو يحدث نفسه:

- فيها إيه يعنى لو حمادة بيه نزل تحت الأرض وأنا طلعت مكانه..

دخل (حمادة بيه) حجرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة و (خالد) من خلفه كظله يتتبعه، وكلما دخل حجرة ترفض قدماه- بشدة- الخروج منها وكأنها قد التصقت بالغراء بأرضيَّة المكان.. حتى استطاع أن يمسك به.. راح (حمادة بيه) يضربه ضربات كثيرة متتالية فى بطنه وفى أجزاء كثيرة من جسده حتى يستطيع الفرار من قبضة يده ولكنه لم يستطع، اقترب (خالد) من الهائم الجالسة فوق

الكرسى الخشبى الهزاز.. تبسمت عندما رأت (حمادة) وقد أفلح (خالد) فى الإمساك به.. مبتسماً قال (خالد):

- معلش والنبي يا هانم سامحيه المرة دى..

- اخرس انت..

- حاضر يا هانم..

- هاته هنا..

- حاضر يا هانم..

ما زال (حمادة بيه) يركل (خالداً) ركلات كثيرة متتالية فى محاولة منه للهرب..

- آه.. آه.. آه.. آه..

ليس باستطاعة (خالد) غير أن يخرج الآهات المخنوقة / المكتومة.. الخارجة بقوة من أعماق قلبه.. وقف أمام الهانم التى قامت من مكانها.. أمسكت (بحمادة).. أجلسته مكانها على الكرسى ثم وضعت يديه خلف ظهره وأمسكتهما بإحكام شديد وهى تقف خلف الكرسي.. فى غضب شديد قالت لخالد:

- هات الطبق ده..

- حاضر يا هانم..

مد يده يلتقط الطبق.. فجأة.. تعلقت يداه فى الهواء..عيناه راحتا تحدقان _وبشدة _فى الشيء القابع فى كبرياء داخل الطبق .. ظل يحدق فى الطبق طويلًا غير مصدق ما يراه..- هات الطبق..انتفض جسده..اهتز الطبق فى يده..فى لجلجلة قال:

- ح.. ح.. حا.. حاضر..

التقط الطبق الممتلئ عن آخره بقطع اللحم المشويَّة.. رائحة اللحم المشوى راحت تدخل إلى أنفه سريعًا حتى جعلت أمعاءه تتعارك بشدة وفمه ينفتح عن آخره ولسانه داخله يتحرك يمنة ويسرة بشدة منتظراً فى شوق شديد.. شديد جداً دخول قطع اللحم..

- هات الطبق ده..

- ات..اتف.. اتفضلى يا هانم..

- أكِّل حمادة بيه..

جلس على ركبتيه أسفل قدمى (حمادة بيه) مد يده داخل الطبق.. أمسك بقطعة اللحم.. فى تثاقل شديد وبطء أشد حملها.. راحت يده ترتفع.. وترتفع.. وترتفع.. متجهة دون قصد أو عمد نحو فمه المفتوح عن آخره..

- أكِّل حمادة بيه..

- ح.. ح.. حا.. حاضر..

تلك الكلمات الغاضبة الخارجة بقوة من فم الهانم جعلت عجلة قيادة يده تغير اتجاهها نحو فم حمادة بيه..

(راح يتذكر نفسه وهو يتجول بين إشارات المرور وهو يبيع علب المناديل الورقيَّة حتى يدق منبه معدته ويستيقظ جوعه بداخله..على الفور يترك مكانه.. يتحرك مسروراً فى اتجاه شارع الميدان قاصداً حاتى (أبو سيد أحمد).. يقف بجوار فوهة خروج الدخان المحمل برائحة اللحم المشوى.. ينظر يمنة ويسرة وفى عجالة يمد يده داخل

الكيس الكبير لعلب المناديل الذى يحمله بين يديه ليخرج (رغيفين) من العيش البلدى الذى اعتاد أن يشتريها صباح كل يوم، قطع (لقمة) راح (يغمسها) بقوة فى الدخان المحمل برائحة اللحم المشوى ثم يضعها فى فمه وهو يردد فى نشوة

(الله.. الله.. الله..)

- أكِّل (حمادة بيه) كويس..

فى غيظ شديد راح يقول:

- حاضر.. حاضر يا هانم

راح يضع قطع اللحم الواحدة تلو الأخرى داخل فم (حمادة بيه) الذى ما زال يضربه فى بطنه بقدميه وهو يردد:

- كفاية.. كفاية يا ماما..

- لأ.. أني شايفاك يا حبيبى ضعفت أوى الأيام دى..

راح (خالد) ينظر إلى جسد (حمادة بيه) الضخم ثم راح ينظر إلى جسده النحيف الذى يشابه تماماً شمعة حجرته المشتعلة

- كفاية.. كفاية يا ماما بطنى حتنفجر من كتر اللحمة..

- لأ.. لازم تاكل طبق اللحمة كله..

خالد ما زال يمسك بقطع اللحم فى ضيق شديد الواحدة تلو الآخر.. يدسها داخل فم (حمادة بيه) وهو يفتح فمه عن آخره متخيلًا أن ما يدخل فى فم الآخر يدخل فى فمه.. حتى أعلنها (حمادة بيه) صريحة مدوية:

- كفايه أنا حاموت.. والله العظيم ما عدتش قادر يا ماما..

تبسم (خالد) بعد أن خيل إليه أن (طاقة) السماء (انفتحت له) واستجاب الله لدعواته التى لم يكف عنها ليل نهار وسوف يأكل قطع اللحم المتبقية داخل الطبق من حمادة بيه.. فى سعادة همس:

- أحمدك يارب..

نظرت الهانم إلى (خالد) ثم قالت:

- ولد يا خالد..

تبسم لها ثم قال:

- نعم.. نعم يا هانم..

- أكِّل حمادة بيه باقى اللحمة.

فى ألم مد يده يلتقط قطع اللحم ليدخلها فى ضيق فم (حمادة بيه) الذى اغتاظ من طاعة (خالد) العمياء لسماع أوامر أمه فراح فى غيظ شديد يضربه برجليه فى صدره.. فجأة.. ظهرت أمام عينيه فكرة.. تلك الفكرة التى توقفت أمامه متصلبة.. رأسها وألف جزمه قديمة لن تتحرك من أمامه قبل النظر فى قوامها وسماع ما قد جاءت إليه من أجله.. من أجله هو فقط.. مستسلماً لها.. راحت الفكرة تهمس فى أذنيه:

(وقع حتة لحم أو حتتين على الأرض وخدهم وأنت مروح)

تبسم (خالد) بعد أن راح يقلب الفكرة يمنة ويسرة.. فقد أعجبته أشد الإعجاب.. وأسرع بتنفيذها على أكمل وجه.

أمسك (خالد) بقطعة اللحم وأراد أن يسقطها مهزومة أرضاً.. لكنه سرعان ما يفشل فى تنفيذ خطته..

أعاد المحاولة مرة ومرات وفى كل مرة يفشل بسبب عيون الهانم المتربصة به.. حتى وجد نفسه يضع آخر قطعة لحم داخل فم (حمادة بيه) ثم وجد نفسه يحدق وبشدة فى الطبق الذى راح يصرخ من ألم الفراغ..

- إوعى كده يا أخى..

وجد (خالد) نفسه ملقى على ظهره من جراء دفع (حمادة بيه)

بقدميه حتى يصبح حراً طليقاً..

- ولد يا خالد..

- ن.. ن.. ن.. نعم يا هانم..

- خلاص مهمتك لحد كده انتهت.. اخرج واقفل الباب وراك

- حاضر.. حاضر يا هانم..

راح (خالد) يخطو خطوات المهزوم نحو باب الشقة وهو يحتضن بنظراته المتحركة فى شتى الاتجاهات مودعاً الشقة الوداع الأخير ولسان حاله يردد فى ألم:

- فيها إيه يعنى لو حمادة بيه نزل تحت الأرض وأنا طلعت مكانه.. أغلق الباب بشدة من خلفه.. نزل درجات السلم ورائحة اللحم المشوى ما زالت تتبعه.. راح يبحث عن سبب المصدر ليكتشف أن أصابع يده عالقة بها البواقى من (فتافيت) اللحم.. وجد أصابعه تدخل فمه الواحد تلو الآخر.. بعد وقت قصير تخرج أصابعه وقد اغتسلت جيداً بمسحوق لسانه الذى لم يعرف بعد..

حتى وجد نفسه مرة ثانية تحت الأرض يقف أمام باب الحجرة. . دلف فى فم الحجرة. . توقف أمام الشمعة التى راحت تخرج بصيصاً من أنفاسه الأخيرة. . ذلك البصيص الذى انعكس انعكاساً كليًّا فوق طبق الفول. . رمى بجسده المهزوم من ركلات (حمادة بيه) المتواصلة وهو يتأوه كثيراً

- آه. . آه. . آه. .

راح يوزع نظراته ما بين الشمعة التى أوشكت على الانتهاء والتى أبت أن تطفئ ضوءها دون دخوله إلى الحجرة حتى يرى أسفل قدميه. . وتارة ثانية ينظر إلى طبق الفول الذى راح يحدق فيه بشدة. . وتارة ثالثة إلى يده التى راحت تتحسس بطنه المنتفخ وكأنه قد التهم طبق اللحم كله. . رفع عينيه إلى سقف الحجرة وراح يحدق فيه طويلًا طويلًا. . حتى كادت نظراته الحادة هذه أن تخترق سقف الحجرة، رويداً. . رويداً. . راحت الشمعة تخرج آخر أنفاسها والتى معها أغلق بابى عينيه مستسلماً لظلمة الحجرة وللنوم.

الجرح النازف..!!

مفتتح:

"الوطن مرسوم فى كل فاصلة.. فى كل رشة حبر يتركها أديب على الورق"

الشاعر / نزار قبانى.

***

وصلت إلى مركز "فلسطين الطبى" فور إبلاغي بما حدث وقفت أشاهدها من خلف الباب الزجاجى لحجرة العناية المركزة، جسدها ممدَّد فوق السرير، أسلاك وخراطيم كثيرة من البلاستيك خارجة وداخلة إلى جسدها الهزيل، بابا عينيها قد أغلقا تماماً، هاتين العينين الخضراوين كلون الزيتون بعد جمعه، هاتين العينين اللتين لم تُغلقا من قبل قط، حتى عندما يغلبهما سلطان النوم دون إرادتهما،

أراهما مفتوحتين على اتساعهما، وكثيراً ما طلبت منها في رجاء أن تريح تروس عقلها المتحرك دائماً، وأن تنام نوماً عميقاً- فجسدها قد صار هزيلًا، بعد أن ذاب جمالها، حتى إنني في بعض الأحيان أشعر أني قد أنجبت ولداً، لقد أشعرتني بحقيقة هذا الأمر، بعد أن اختفت معالم أنوثتها تماماً- تبتسم في وجهي كعادتها قبل أن تجيبني عن أي سؤال، راحت تقول وهي عاقدة يدها خلف ظهرها، تجوب حجرة نومها:

(أبي.. كيف تطلب مني أن آخذ نصيبي كاملًا من النوم والقدس أسير..؟!!)

لم أجد بديلًا، أغلق عليها باب حجرتها، وأتركها وحيدة فكرها، فقد اقترب موعد صلاة الفَجر.

وعند عودتها من مدرستها (القدس الأبيَّة) تجدني أجلس في انتظارها بعد أن انتهيت من إعداد وجبة الغداء، تقبلني قبلات، اثنتين على خدي، ومثلهما على يدي اليمنى، تضع كراريسها التي احتضنتها طيلة ذهابها وعودتها من المدرسة، في سعادة راحت تفرغ جيوبها المثقلة بالأحجار، تلك الأحجار التي استطاعت جمعها وهي في طريق عودتها من المدرسة، أجد السعادة كل السعادة متوثبة على خديها، وهي تحدق في وجوه الأحجار القابعة من حواليها، تمسك حجرين تضربهما في بعضيهما ضربتين قويتين، على الفور تخرج من جوفيهما حصوات صغيرة قد ولدت لتوها، تمسك الحصوات حديثة الولادة، الواحدة تلو الأخرى، وكأفضل صانع أجدها تمرر

المقدمة فوق حجر منْ الجرانيت الصلب، حتى تخرج مقدمة الحصوات في النهاية مدببة كحد السكين، ثم تحدثها في تمن من وقت لآخر:

(أحبابي.. جنودى الأبطال البواسل، عندما تخرجون من (نبلتى) أرجوكم أن تصيبوا هدفكم تماماً مثل كل المرات السابقات، اخرجوا لتدخلوا في رؤوس أو أعين أعدائنا، فإذا كنا لا نملك طلقات الرصاص التى نضعها داخل الأسلحة، فإننا قادرون بأمر الله أن نصنع من الأحجار طلقات رصاص فتاكة، تصيب أعداءنا في مقتل، أليس كذلك أيها الأبطال..؟!!)

كثيراً ما حاولت أن أمنعها من الخروج، بعد أن أغلق الأبواب والنوافذ، ورغم أنها لم ولن ترفض لى مطلباً، ورغم أنى أنا الذى أغلقت كل مخارج ومداخل دارنا، إلا أننى أقوم بفتحها كما أغلقتها، بعد أن أرى دموعها وهى تتساقط سريعة ملتهبة على خديها وهى ترجونى:

(هذه البلد لها حق علينا، وما أفعله تجاهها واجب، بل أقل بكثير من كلمة واجب)

أصرخ في وجهها:

(ولكنى أخشى عليكِ من أن يخطفكِ الموت، وأنتِ صغيرة صغيرة يا ابنتى على الموت و.....................)

تضع أصابعها الصغيرة _التى تآكلت هى الأخرى كأحجارها _ على فمى وهى تقول:

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)

أخجلِ من نفسي، ومن قوة إيمانها ووطنيتها، على الفور تجدني أهرب منها، ومن ضعفي، وقلة حيلتي بفتح الأبواب على مصاريعها..

(لا إله إلا الله)

تقولها وهي خارجة في همة ونشاط..

أرد عليها وقلبي ينزف ألمًا وخوفًا:

(محمد رسول الله)

أمسك بالمصحف الشريف بين يدي، منذ اللحظات الأولى لخروجها، أقرأ ما تيسر لي من القرآن الكريم، كي تهدأ أنفاسي وخوفي، الشيطان الرجيم ظل متربصًا بي حتى أوقعني فريسة سهلة، أغلقت المصحف بعد أن تأكد لي أن لساني يردد الآيات فقط دون وعي أو إدراك.. رحت أجوب المكان عاقداً يدي خلف ظهري..

توتري وخوفي الشديدان عليها جعلاني أشعل سجائري من وقت لآخر، مستعينا بأكواب من الشاي والقهوة لعلها تهدئ من روعي وقلقي اللذين جعلاني لقمة سهل مضغها، تماماً مثل كل الليالي السابقة..

وجدتني أقف لأحدث صورة (وطنيَّة) زوجتي رحمها الله:

- أرأيتِ يا وطنيَّة ما تفعله معي ابنتنا، لها رأس من حديد، مثلك تماماً، لم تترك منك شيئاً، سبحان الله العظيم في خلقه، وكأنكما كدما يقول المثل:

(فولة وانقسمت نصين)

ترى هل تفلح رصاصات الأعداء فى إصابتها هذه المرة، حتى تكون جليستك فى قبرك..؟!!

ترى هل ستكتب الأيام على باب بيتى أن أعيش بقيّة عمرى وحيداً..؟!! لا زوجة ولا أولاد..

تطمئننى ابتسامة زوجتى الصافية كاللبن الحليب، أتركها وأفتح كل النوافذ التى تطل على شوارع المدينة، أترقب قدومها فى لهفة..

ظنون.. احتمالات.. خوف.. قلق.. خيول عربية جامحة راحت تتحرك بشدة داخل صحراء رأسى، لا تهدأ، ولا يهدأ لى بال إلا عندما أراها أمامى، يتساقط عرقها الذى كاد أن يغسلها لكثرته، وقلبها الذى كاد أن يخرج من مكانه من جرّاء هروبها المتواصل بعد تنفيذ مخططها اليومى، أغلق ما فتحته من أبواب وشبابيك، أدخلها فى حضن حضنى، تقبل يدى، أقبل رأسها وأنا أتمتم بحمد الله وشكره لعودتها سالمة، مبتسمة تقول- كما قالت من قبل- وهى تلهث:

(لقد وفقنى الله عز وجل فى إصابة الكثير من جنود الاحتلال، لقد جعلتهم يلعنون يوم مولدهم، لقد جعلتهم يصرخون دمعًا وألمًا، ويشهد على ذلك ربى، وعلم فلسطين المصغر الذى أجفف به عرقى من وقت لآخر، وبعض الشباب الأحرار الأوفياء لتراب هذا الوطن)

ورغم خوفى الدائم عليها إلا أننى سعيد وفخور بأن هذه ابنتى، لا.. بل ابنة هذا الوطن.

ورغم انشغالها الدائم طيلة النهار فى صنع رصاصها الحجرى، وممارسة نشاطها القتالى كل ليلة، إلا أنها متفوقة دراسيًّا، بل والأكثر من هذا أنها الأولى على مدرستها كل عام، كيف يحدث ذلك...؟!! لا أدرى.

- شد حيلك..

قالها الطبيب، بعد أن وضع يده على ظهرى، قلت والدموع- المخبأة داخل عينى طيلة الأيام الماضية- تغسل وجهى الآن:

- أخبرنى عن حالتها..

قال وأهداب عينيه تتجه مكان وقوفه:

- جاءتنا ابنتك غارقة فى بحر دمائها، أخرجنا من جسدها ما تيسر لنا إخراجه من طلقات رصاص، اخترقت جسدها الواهن، لك أن تتخيل أننا أخرجنا ما يقرب من إحدى عشرة طلقة، ولم تتبق غير اثنتين.. اثنتين فقط يصعب علينا إخراجهما؛ لأنهما ملتصقتان تماما بالقلب..

الصمت القاتل راح يلفنا..

خوفه الشديد عليَّ، جعل الطبيب يتوقف عن حديثه، سألته وأنا أعرف الإجابة جيداً:

- ماذا تريد أن تقول أيها الطبيب..؟!!

رفع رأسه..

راح يحدق فيها من خلف الزجاج، ثم التفت ناحيتى، وراح يقول فى أسى وحزن دفين:

- أقولها لك بكل صراحة، حتى تدبر أحوالك، عليك أن تحتسب ابنتك عند الله و ....

قاطعته بقولي:

- ماتت....

- لا.. ولكنها في طريقها للموت.. نعم في طريقها للموت لا محالة.

- ألهذا الحد قد عجز الطب والأطباء عن إنقاذها من الموت المحقق؟!

- لقد بذلنا أقصى ما في وسعنا لإنقاذها، لا تضيع وقتك، اذهب وأقم لها مراسم تشييع جثمانها، فما بين اللحظة والأخرى ننتظر خروج روحها إلى بارئها جلَّ جلاله..

سألته في عجز:

- أليس هناك من سبيل لإنقاذها..؟!

رد في أسًى وانكسار:

- لا.. لقد أوشكت النهاية

- أو حتى بصيص أمل..؟!

- صدقني إذا قلت لك إننا جميعًا نعيش على الأمل، وبدون أمل مؤكد سوف نموت في بطء شديد، اجعل أملك في الله أولاً وآخراً.

صمت برهة، ثم عاد يقول بعد أن وضع يده فوق كتفي:

- اعلم جيداً أن ابنتك شهيدة.. نعم شهيدة الوطن..

ثم قال بعد أن مسح دموعه المتساقطة:

- بسم الله الرحمن الرحيم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) صدق الله العظيم.. لا تحزن لموت ابنتك، بل ادعُ لها بالرحمة والمغفرة، وادعُ لنا أن نموت فى سبيل الوطن.

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون، رحت أرددها فى همس وأنا فى طريقى للخروج..

- انتظر من فضلك..

توقفت، ألتفت خلفى فوجدته نفس الطبيب، أقبل نحوى وهو ما زال يمسح دموعه، ثم قال فى فخر:

- خذ هذه الأشياء وجدناها داخل جيوب ابنتك، مصحف صغير، وعلم فلسطين، وهذه النبلة.

تركنى وأسرع بالفرار من أمامى، قبل أن ينهار باكيًا، فردت العلم ووضعت بداخله المصحف والنبلة، ثم ألقيت عليها نظرة الوداع وانصرفت؛ لأقيم مراسم تشييع الجثمان والعزاء.

- ٢ -

فور وصولى إلى البيت، أمسكت سماعة الهاتف وأسرعت- وقلبى يتمزق ألمًا لفراقها- بإخبار الأهل والأقارب والأصدقاء، الذين حضروا مسرعين فور سماعهم النبأ الأليم.

- ٣ -

وطأت أقدامنا- أنا ومن أراد مرافقتى- الباب الرئيسى لمركز "فلسطين الطبى".. وقفت أمام موظف الاستقبال، وكلما هممت بأن أتحدث للموظف باسمها، وأننا جئنا لنتسلمها جثة هامدة،

وجدتني أتراجع.. تقف الكلمات في حلقي، حتى وجدتني أنخرط باكيًا، أسرع أحد الأصدقاء وضمني إلى صدره، ورحنا نبكي سويًا، وتقدم آخر من خلفنا وراح يملي على الموظف بيانات ابنتي .

- هذا الاسم ليس موجودًا في الكشف..

قالها موظف الاستقبال، ورحنا نحدق فيه جميعًا، وجدتني أسأل نفسي في صمت :

- إذا لم يكن اسم ابنتنا في الكشف.. إذن أين ذهبوا بها..؟!! أين ابنتي..؟!! أتكون أيادي الأعداء قد وصلت إلى هنا لخطفها انتقاما لما فعلته معهم..؟! أسرعت إلى الموظف، انتشلت من بين يديه الدفتر، ورحت أبحث عن اسم ابنتي بنفسي، لأكتشف عدم وجوده، عدت أبحث عنه مرة ثانية وثالثة وعاشرة، وعندما فشلت توجهت بسؤالي للموظف الذي راح يحدق في وجهي :

- إذا لم يدون اسم ابنتي في كشف الأموات.. فأين هي إذن..؟! أرجوك أجبني لا تتركني هكذا..؟!!

سألني بدوره :

- متى رأيتها آخر مرة..؟!!

قلت وأنا أكاد أموت غيظًا منه ومن سؤاله :

- رأيتها صباح اليوم، وهي ما زالت داخل حجرة العناية المركزة.

طفت على صفحات وجه موظف الاستقبال ابتسامة طفيفة، ثم قال :

- اذهب سوف تجدها كما تركتها . .

أسرعنا، فوجدناها ممددة على سريرها، الابتسامة تملأ وجهها، وعيناها الخضراوان تضيئان الحجرة، جلسنا نتأملها من خلف الزجاج لساعات طويلة، ونحن ندعو لها إما بالشفاء أو . . . .

طالبت الأهل والأصدقاء والجيران الذين حضروا معي أن يذهبوا؛ حتى يدبروا حاجاتهم؛ ويرعوا مصالحهم التي عطلت، امتنعوا جميعًا في بادئ الأمر، ولكنهم استجابوا لي بعد ذلك.

- ٤ -

صارت ابنتي حديث العالم بأسره . .

وراحت الصحف والمجلات العربيَّة والعالميَّة تفرد صفحاتها الأولى لأخبارها وصورها . .

صارت أخبارها وصورها تُبَثُّ كل يوم عبر الأقمار العربيَّة والأوربيَّة، بل إن عميد كليَّة الطب صار يصطحب طلابه كل يوم، ويشرح لهم حالة ابنتي التي من المفترض أن تكون قد فارقت الحياة منذ شهور طويلة مضت، على حد قوله، وقول الأطباء من قبله . .

بل والأغرب من هذا أن هناك رسائل دكتوراة تناقش الآن في جامعاتنا العربيَّة عن صلابة وقوة ابنتي، ورفض جسدها الاستسلام للموت، شهورًا طويلة . . طويلة مضت لا أعرف عددها لكثرتها، وأنا قابع هنا أمام حجرتها أشاهد ابنتي (زهرة المدائن) وهي تصارع الموت كل لحظة بسلاح الأمل.

آهة القهقهات..!!

قتلانا.. وقتلاهم..!!

مهداة إلى:

الشهداء من الضباط والجنود المصريين فى مجزرة (رفح) لحظة مدفع إفطار رمضان فى يوم الأحد الموافق ٥/ ٨/ ٢٠١٢

• فى الصباح..

قررت أن أزور أختى المريضة قبل ذهابى إلى عملى..

إصرارها الشديد على أن تقوم من (رقدتها) لتصنع لىَّ كوبًا من الشاى - الثقيل الغارق بداخله أوراق النعناع ؛ كما أحب أن أشربه - جعلنى أقوم من مكان مجلسى لأتركها ترتاح وأدخل مطبخها لأول مرة كى أصنع بنفسى كوب الشاى.

حبات قليلة من السكر وجدتها متناثرة فوق رخامة المطبخ، كانت حفل إفطار جماعى لمجموعة كبيرة من النمل.. أغاظنى المنظر، مما جعلنى أثور وأندفع مصوبًا نحوهم أكبر وأضخم أصابعى، ورحت أفركهم فركًا.. بعد وقت قصير.. قصير جدًّا رحت أتنفس الصعداء، وأنا سعيد غاية السعادة، فقد قتلت منهم الكثير،

وأصبت منهم الكثير- الذى نجح فى الهرب- وللأسف الشديد هرب منهم الكثير والكثير.

● **فى العصارى..**

إنه حلم.. نعم حلم سخيف لا أحب أن أعيشه مرة ثانية..

هكذا وجدتنى أهمس لنفسى - وأنا مستلقٍ على ظهرى فوق السرير - بعدما فتحت عينى لأخرج مرغماً من بئر نومى العميق عجبا..

السرير ما زال يهتز بى بشدة، بل أن هزاته تزداد شيئًا فشيئًا، إذن الزلزال ليس حلماً كما كنت أتوهم، على الفور اعتدلت فى مكانى، رأيت أسرابًا كثيرة من النمل تصعد إلىَّ من خلال أعمدة السرير النحاسيَّة، يقود كل سرب قائد كبير الحجم، يحملون قتلاهم، ومصابيهم الذين انتصرت عليهم صباحًا، تسبقهم إلىَّ نظراتهم الناريَّة الانتقاميَّة، عرفت وأيقنت أننى هالك.. هالك لا محالة، لذا وجدتنى أقفز من فوق السرير هاربًا من أمامهم وأنا أردد:

- الجرى كل الجدعه.. الجرى كل الجدعه..

هناك أسفل شقتى وقفت لأخذ أنفاسى داخل المقهى الشهير المكدس بزبائنه الذين انقسموا إلى مجموعات متباعدة رغم قرب المسافات فيما بينهم، فمنهم من يلعب الدومينو، ومنهم من يلعب الطاولة، ومنهم من يشرب الشيشة فى تلذذ، ومنهم من يلعب الكوتشينة، ومن بينهم فئة كثيرة.. كثيرة جداً جلست تقزقز اللب

الصينى وهم يشاهدون ذلك المشهد التى راحت تبثه إحدى القنوات الفضائيَّة لمقتل وإصابة العشرات من الضباط والجنود المصريين على الحدود فى رفح إثر هجوم مفاجئ لحظة تناولهم طعام أفطار رمضان، وجدتني أحدق وبشدة فى تلك الوجوه الملتفة من حولى..

رويداً..

رويداً..

وجدتنى أنسحب من داخل المقهى، حتى توقفت بى قدماى أمام اللافتة الضخمة المعلقة أعلى المقهى، والتى صدئت تماماً أحرفها النحاسيَّة مقهى (الوطن العربى).

كلب العرب..!!

-١-

مازال "الكلب" يتبختر في سعادة وَزهو، داخل بهو القْصر الملكي، ومن خلفه ساروا على نهج خطواته، فمنهم من يحمل طعام "الكلب"، ومنهم من يحمل له زجاجة المياه المعدنيَّة، وآخرهم يحمل له الكاسيت ليسمعه "السيمفونيَّة التاسعة لبتهوفن" بعد أن وضع سماعتي "الوكمن" في أذني "الكلب"..

توقفت خطوات "الكلب" فجأة..وقف يحدق وبشدة في وجه التلفاز ذي الـ٤٢ بوْصة، شعر بوجوده "الملك" الجالس في نشوة، واضعًا رجلًا فوق الأخرى، أمامه أصناف كثيرة.. كثيرة من الفواكه الطازجة، وكما اعتاد "الملك" راحت أصابعه تتحرك في خفة وبطء فوق رقبة "كلبه" الذي نزع السماعتين من أذنه، وراح يخرج هوهواته المتكررة الغاضبة في وجه التلفاز، مذهولًا راح "الملك" يحدق في وجه

"الكلب" ، وسرعان ما نظر إلى خدام "الكلب" الملتفين من حوله ، آمراً إياهم بأخذ "الكلب" فى التو واللحظة لإعطائه حماماً دافئاً . . هوهواته الغاضبة المتتالية راحت تخيف من يقترب منه . .

تعجب "الملك" من رفض "الكلب" ، فهذه هى المرة الأولى التى لم ينصع فيها لأوامره ، عاد "الملك" يأمر خدام "الكلب" أن يضعوا سماعتى "الوكمن" فى أذنى "الكلب" لعل الموسيقى تهدئ من ثورة غضبه المشتعل ، نيران الغضب المشتعلة فى جسد "الكلب" تمنعهم من تنفيذ أوامر "الملك" . . تجهم وجه "الملك" وظهرت عليه مئة علامة تعجب مما يفعله "كلبه" الذى راح يقفز قفزات عالية قاصداً بفعله أن يدخل فى جوف التلفاز ، ليأكل بين فكيه (. . . . .) وعندما تصدى لفعلته "الملك" ؛ توقف "الكلب" وراح يحدق فى وجهه بارتياب شديد ، تلك النظرات الجارحة التى لم يستطع "الملك" التصدى لها غير التشاغل بالنظر فى اتجاه آخر . . الصمت الحجرى من حول "الملك" راح يزداد ويزداد ويزداد .

مازال بركان غضب "الكلب" مشتعلاً ، على الفور أغلق "الملك" التلفاز ، بعدما فطن أنه هو المتسبب فيما يحدث . .

ورغم إغلاق التلفاز لم تهدأ ثورة "الكلب" . . أمر "الملك" بإحضار الطبيب الخاص بذاك "الكلب" الذى لازمه منذ الساعات الأولى لمولده ، وفور حضور الطبيب ، وجد نفسه يقف مشدوهاً غير مصدق ما يحدث من "الكلب" . .

سريعاً أخرج من حقيبته حقنة مهدئة شديدة المفعول ، ورغم حقن

"الكلب" إلا أن ثورته لم تهدأ، بل على عكس المتوقع زادت من حدتها، تعجب الطبيب، ومن خلفه خدام "الكلب" ومن ثم سأل "الملك" الطبيب عما يحدث من كلبه، وعن تشخيصه للحالة، وعن... وعن... أجابه الطبيب:

- انهيار عصبى حاد من النوع الغريب..

-٢-

منذ اللحظات الأولى لرؤية "الكلب" المشاهد الاستفزازيَّة، وحتى صبيحة اليوم التالى، لم تهدأ ثورته الغاضبة، أمر "الملك" بنقل كلبه سراً- والحرب الإسرائيليَّة ما زالت جارية على قطاع غزة- لتلقى علاجه بمستشفى (.....) البيطرى

-٣-

مات "الكلب".. وتم إعادة جثته إلى "الملك" مرفقًا معها خطاب اعتذار كتب فيه:

(فخامة الملك الموقر"........" ملك دولة "........" دامت صداقتنا الغالية، أما بعد..

فخامة "الملك" الموقر.. نحيط سيادتكم علمًا بأنه فور وصول "كلبكم" إلينا لتلقى العلاج، وما إن رأى علم دولتنا يرفرف فى كل مكان داخل المستشفى، حتى راح يمزقها تمزيقًا، ونظراً للعلاقة الطيبة، والمصالح المشتركة المتبادلة بين دولتنا ودولتكم رفضنا قتله،

وقمنا بعزله منفرداً في حجرة خاصة _مكيفة الهواء _ لتلقى العلاج، وكلما حاول أطباؤنا الاقتراب منه ثار ثورته العارمة التي لم نرها من قبل، ولم نعرف لها سبباً، فقررنا أن نبدأ مرحلة العلاج بعد عدة أيام من استضافته، وحتى تهدأ ثورته تماماً، ورغم ما بدر منه كنا نقدم له واجب الضيافة _كل يوم في موعده _الذي كان يرفضه، ويرفض الاقتراب منه تماماً، لقد رفض وبشدة تناول طعامنا، ومن قبله العلاج حتى أتته المنيَّة..

خالص عزائنا، وحزننا الشديد لوفاة "كلبكم" الوفي.. دامت محبتنا وصداقتنا الغالية.. التوقيع.. مدير مستشفى "بيت داجان" بإسرائيل).

آهة القهقهات..!!

- ١ -

العيون.. كل عيون المرضى المنتظرين بالاستقبال ومعهم ذووهم تنظر إليك فى عطف شديد.. فالمشهد مرتفع دراميًا حتى وصل إلى ذروته.. تسحبك زوجتك من يدك.. تدخل بك إلى حجرة كشف الطبيب.. وطفلتاك (أمل، ورجاء) متشبثتان بأطراف ثيابك المتهالكة.. تجلس زوجتك أمام الطبيب تشرح له حالتك بالضبط.. وما زالت طفلتاك تتشبثان بثوبك.. يأمرك الطبيب بالاسترخاء على ظهرك.. تنام على ظهرك وطفلتاك تمسكان - وبشدة - بأصابع يدك اليمنى..

تتحول عيناك نحو شاشة التلفاز التى تبث مباراة كرة القدم الدائرة بين قطبى الكرة المصريَّة.. يصرخ فى وجهك الطبيب:

- الضغط عالٍ.. عالٍ جدًّا جدًّا.

تتحول شاشة التلفاز إلى بقعة دماء كبيرة.. كبيرة جدًّا جدًّا..
تسع الكرة الأرضيَّة.. فوق هذه الدماء ترقد الشعوب العراقيَّة..
الفلسطينيَة.. اللبنانيَّة.. الأفغانيَّة.. السودانيَّة.. .. .. ..
هذا التحول اللاإرادى لا يراه غيرك.. فجأة.. تجد نفسك
تقهقه.. وتقهقه قهقهة تتبعها آهة !! يتعجب الطبيب لأمرك..

- ٢ -

بشدة يصرخ الطبيب فى وجهك بعد أن ظهرت أمامه نتيجة
العينة العشوائيَّة لقطرات دمك..

- والسكر عالٍ.. عالٍ جدًّا.. جدًّا.

الدماء الملطخة بوجه شاشة التلفاز تتحول إلى مظاهرة احتجاج
كبيرة.. كبيرة جدًّا تجوب شوارع العاصمة تندد ببيع البقيَّة الباقية
من تاريخ مصر.. فجأة.. تجد نفسك مدفوعًا وبقوة.. تقهقه..
وتقهقه قهقهة تتبعها آهة !!

- ٣ -

فى غيظ شديد ينظر إليك الطبيب.. إنه فى عجب مما يحدث
منك.. يضع فى فمك مقياس درجة الحرارة..

المظاهرة التى تجوب التلفاز تتغير.. تتحول لتملأ الشاشة
بأكملها بصورة المعلم (عجوة) صاحب العقار الذى تسكن فى
إحدى شققه، يتحدث إليك وحدك دون غيرك.. (اسمع يا أفندى:

الإيجار عندى أهم من الدنيا واللى عليها وأنا ما بتدخلش دماغى كل حججك الفارغة.. المرتب قليل.. العيال.. الكهرباء.. الحياة.. كل ده ارميه على جنب، الأهم ثم الأهم الإيجار وإلا قسماً عظماً أطر.............) لا تجد لك من بديل غير أن تضع يدك فوق فمه بقوة حتى لا ينطقها.. يتراجع المعلم (عجوة) عن طردك مثل كل المرات السابقات عندما يرى زوجتك وهى تدخل عليكما حجرة الضيوف لتضع شاى الضيافة.. زوجتك التى يتمنى الزواج منها مقابل جلوسك فى الشقة طيلة عمرك أنت والأولاد، هذا ما صرح به فى آخر جلسة أنس مع الأصدقاء.. يتراجع عن طردك لأنه سوف يحرم من النظر إلى قوامها الذى ليس له من بديل.. ولون عينيها الذى أوقعه على وجهه.. فى ذهول وخوف وحذر يتراجع الطبيب إلى الوراء وهو ما زال يحدق فى الترمومتر.. قال وهو يتصبب عرقًا:

- درجة حرارتك عالية.. عالية جدًا.. جدًا.. جدًا.

ثم أردف قائلًا بعد سكون:

- إزاى إنت عايش لحد دلوقتى...؟!!

تنظر إلى زوجتك.. تتذكر لحظة رؤيتك لها وهى تحمل بين يديها آخر مجموعة لديك من أمهات الكتب- لتصبح مكتبتك عارية.. خالية- لبيعها إلى عم (عبد المعز) من أجل دفع ثمن الكشف الباهظ.. ثم تنظر إلى طفلتيك اللتين ما زالتا تتشبثان بأصابعك. تجد نفسك تقهقه.. وتقهقه قهقهة تتبعها آهة..!! حتى

طفرت عيناك بالدموع، على الفور يضغط الطبيب فوق الجرس القابع بجواره.. سريعًا تدخل إليه (التومرجيَّة) مبتسمة.. وفى أدب جم راحت تقول:

- نعم يا دكتور..

فى خوف وهلع ينظر إليك الطبيب ثم يقول:

- إدى الأستاذ ثمن الكشف..

فى عجب تنظر إليه زوجتك ثم تقول:

- ليه يا دكتور...؟!

الإجابة موجودة على طرف لسانه..

- علاجه ليس عندى.. علاجه هناك فى مستشفى الأمراض العقليَّة والعصبيَّة..

فجأة..

تجد نفسك تقهقه.. وتقهقه قهقهة تتبعها آهة !!

من يحمل الراية..؟!

كما أن البشر معادن.. منا الذهب والفضة وفينا النحاس، والصفيح أيضًا.. لقد خلق الله العالم فى أسبوع.. أما الإنسان منا فلن يستريح قط "

(إسكافى المودة - يحيى الطاهر عبد الله)

****

(م)

أوصانى أبى وهو على فراش الموت أن أعمل جاهدًا فى تحمل آلام البشر.. والتخفيف منها، وكانت آخر كلماته لى:

(جئت بك في هذه الدنيا كى تحمل الراية عنى.. وعندما يتقدم بك العمر، ويزداد تحملك لهموم غيرك.. تزوج وادع الله مثلما دعوت، أن يهبك إنسانًا كى يحمل عنك رايتك.)

(ن)

فى كل صباح أهب من نومى مفزوعًا على صرخات العالم..

أمٌ تصرخ..

تبكى لبكاء طفلها الرضيع..

تعتصر ثدييها فلم يعد بهما قطرة لبن لإسكات جوعه.. بعدما رفضت بيع جسدها ثمنًا لإشباع طفلها.

وطفل يصرخ..

لا يرى.. لا يسمع.. لا يتكلم.. سقط فى بئر مهجور.. تصرخ عيناه ألمًا.. يفتش عن ظل لصدى صوت ما زال يطلقه لعل أحداً يسمعه.

وفوق البئر ذاته طفل يرى.. يسمع.. يتكلم.. يلهو ببراءته.. يتقافز سعيداً.. يغرد كالعصافير.

ولون أسود..

يخترق قلب مدينتى.. يقفز بين بيوتها كل ليلة.. يوقظ شبابها من أحلامهم.. فعندما غضب الإله عليه توعد الأسود قائلًا:

- "لأغوينهم أجمعين"

ولون أبيض..

قد شاب شعره.. وضعف بدنه.. فمنذ بدء الخليقة وهو يسرع.. ويسرع وراء الأسود، يترقبه.. يترصد حركاته.. يود لو أصلح ما أفسده وعندما يقترب الأبيض من الأسود كى يكونا توأمًا.. يبتسم الأسود.. يضحك ضحكات عالية.. يخرج لسانه وبعدها يسرع هاربًا ليسابق الرياح.. ومن ورائه الأبيض يلهث.

(ى)

أقفز من سرير نومي.. تلفحني اللافتة المعلقة على جدار الحجرة (الصبر مفتاح الفرج)

أقترب من أحزان العالم المعلقة فوق شماعتي.. أرتديها الواحدة تلو الأخرى.. لتصبح شماعتي خاوية حتى أشعر وكأني بالونة قد امتلأت بالأحزان.. حجمها يزداد يوماً بعد يوم.. وبكاء العالم سكاكين قد أحدثت شرخًا هائلًا في جدارها الخارجي، وأخشى على نفسي من الانفجار، وبعدها تنفجر أحزاني المتقوقعة داخلي، وتوزع بين بلدان العالم، وبعدها تسكت الضحكات.. كل الضحكات، وتتبدل إلى أحزان.

أقف أمام المرآة.. أسأل نفسي:

– من أنا..؟!!

تخبرني:

– أنت إنسان..

– ولكن الإنسان يضحك، ويبكي.. أما أنا فقد اختلطت الضحكات بالدمعات حتى أنني أضحك من كثرة البكاء..

– هذا قدرك.. نعم قدرك أن تحمل الراية.. أن تصبح حبلًا تتمدد عليه أحزان العالم.

– ولكني إنسان كما تدعين، ويجب عليَّ أن أعيش كما أهوى

– ولكنك لا تعلم أنك آخر إنسان.

– ولكن الحمل ثقيل.. ثقيل جداً، ولم أعد قادراً على حمله.

- عليك بالزواج.. نعم الزواج.. تزوج كى تحمل عنك زوجتك بعضاً مما تحمل أنت.

(ح)

وقبل أن أخرج إلى عملى، رأتنى أمى أجوب حجرات البيت، أدخل إلى حجرة وأخرج من أخرى، اقترب منى فى خطوات بطيئة متثاقلة، وهى تمسك بين يديها بمرآة عمرى الذى لا أعلم عنه شيئًا، قالت فى أسى وحزن شديد:

- انظر إلى نفسك فى المرآة.. ولو مرة واحدة، لم يبق فى العمر أكثر مما مضى، تزوج.. تزوج حتى يخرج من صلبك من يحمل عنك عناء تفكيرك.

صورة أبى عبر الماضى تتراءى أمام عينى.. تخرج كلماته:

(وعندما تكبر ويزداد تحملك لهموم غيرك.. تزوج.. تزوج وادْعُ الله أن يهبك إنسانًا كى يحمل عنك رايتك)

وبعد تمهل خرجت الكلمات من فمى متبعثرة.. متفرقة كل فى اتجاه:

- م.. م.. و.. موافق

(م)

أترك البيت قاصداً عملى الوظيفى..

فى الطريق أشترى الجريدة اليوميّة..

رحت أقرأ العناوين الرئيسيَّة البارزة بقوة:

(انفجرت قنبلة داخل قطار وأسفر الحادث عن مقتل.............)

(عثرت الشرطة على جثة بدون رأس، وقطعت إلى أجزاء داخل حقيبة سفر فى محطة مصر)

أغلق الجريدة فى قرف..

أكورها ثم أرمى بها فى الهواء.

(ل)

أصل إلى مكان عملى، أحيى أصدقائى، يردون علىَّ:

- صباح الخير يا وطنى..

أراهم يتهامسون.. يصوِّبون نظراتهم نحوى، وبعدها تتوالى الضحكات، أجلس أخرج منديلى لأطرد الأتربة المتراكمة فوق الرخام الراقد فوق مكتبى والتى تحمل عبارة " الصبر مفتاح الفرج ".

يأتينى الساعى بفنجان القهوة السادة، أرى وجهًا على غير العادة، ينظر إلىَّ فى تعجب، تخرج كلماته كطلقات ناريَّة قد صوبت نحوى:

- خيرها فى غيرها.

سألته بدورى:

- ماذا تقصد..؟!!

أجابنى بصوت حزينٍ:

- الترقيات.. الترقيات.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. الترقيات ظهرت واسمك.................

قلت مبتسماً:

- واسمي غير موجود.. أليس كذلك؟!!

طأطأ رأسه في أسى وبعدها صاح وعيناه قد صوبتا نحو الجالسين من حولي:

- الصبر مفتاح الفرج.

(أ)

أعود من عملي متعبًا..

رحت أدق بابي..

تفتح أمي مبتسمة..

أرمي بجسدي المتعب على أقرب مقعد..

تسرع أمي بالجلوس بجواري..

راحت تخرج من جيب جلبابها صوراً عديدة وهي تضعهم تباعًا فوق المنضدة وهي تقول في تفاخر:

- اختر يا أستاذ.. أمامك البيضة شديدة البياض، والسمراء ذات الدم الخفيف، وذات العيون الخضراء، وهذه بنت حسب ونسب ومن عائلة تشرف.

ألقيت نظرة عابرة على الصور المتبسمة المتراصة أمامي في صمت، ثم رحت أقول:

- أيَّة امرأة شريطة أن تنجب ليَّ إنسانًا يحمل الراية من بعدي.

(ل)

وتخيرت أمى زوجة لى..

تزوجت..

دعوت الله أن يهبنى إنسانًا يساعدنى فى حمل الراية، ولكن ما حدث كأن على غير المتوقع، فقد فعلت زوجتى ما طلبته منها أمها بالحرف الواحد، وقامت خاضعة مستسلمة بتنفيذه على أكمل وجه:

(اربطيه بالعيال)

(ر)

راحت تنجب زوجتى الواحد بعد الآخر حتى جعلت من أطفالى قيداً لى.. لا أدرى أيهما جاء قبل الآخر، هل جاءوا دفعة واحدة..؟!! أم جاءوا على دفعات..؟!! حتى عددهم لا أذكره.. لا أعرف أسماءهم، وصرت أنادى على أحدهم يرد علىَّ قائلًا:

- اسمى أحمد يا بابا..

وألوح لابنتى دون معرفتى أسمها فتقول:

- يا بابا اسمى سميَّة.

(ا)

أنظر إلى زوجتى وأبنائى وهم يمرحون.. أتقوقع فى ركن من أركان الصالة، تنظر إلىَّ الأخرى، تتقابل الأعين، أقول لها بعد أن ضقت بحالى:

- كنت أبحث عن صورتى، أو صورة تشبه صورتى، وصدراً حنوناً لأريح عليه رأسى المتعب، حتى قالوا تزوج وتزوجت و........

على غير العادة تهب واقفة من مكانها صارخة فى وجهى:

- اسمعنى.. يجب عليك أن تسمعنى جيداً، دورك البطولى التمثيلى الذى تقوم بأدائه- الذى وكله لك أبوك- لم يعد له قيمة، فى الصباح أسمعك تردد (إنسان) وعند المنام أسمعك تقول (من يحمل الراية) لقد انشغل الجمهور عنك بغيرك، أصبح لا يراك أحد ولن يرى ما تفعله، أتدرى لماذا..؟!! لأن الأضواء حجبت عنك وأصبحت تمثل دورك فى مكان مظلم والجمهور لا يسعده ذلك، أتدرى لماذا..؟!! لأنهم جاءوا هاربين من حقائقهم المرة التى يتجرعونها ليل نهار، وتأتى أنت وبدورك تذكرهم به.. كيف..؟!!.. كيف..؟!! صدقنى لم يعد لدورك أيَّة قيمة.. أتدرى لماذا..؟!! لأن رواده ومحبيه من الجمهور غير متواجدين وحتى الآن تبحث عمن يساعدك، وستظل تبحث.. وتبحث دون جدوى، لأنك وأباك لا تدركون أن الزمان تغير وتبدل، وعليك الآن أن تعيد كتابة فصول روايتك مرة أخرى حتى تكتمل، عندئذ سوف تجد حشداً غفيراً من الجمهور.

طأطأت رأسى، ولم أشأ أن أمنحها رداً، لقد جعلت منى فارساً مهزوماً، وجعلت رايتى منكسة.

(ي)

أهرب من بيتي ومن نظرات زوجتي المليئة بالسخرية بحثًا عن قلوب.. عن وجوه تعرفني، عن إنسان يعرف إنسانًا يحمل عني رايتي التي أثقلت كاهلي وليس لي من مهرب، رحت أحفر بأصابعي.. أفتش بين الوجوه.. وسط الصخور والجبال العالية عن شخص يشبهني في صورتي الباهتة التي لم تعد تعجب زوجتي، كل يوم أصرخ في وجه الأيام بحثًا عن إنسان، أمسك قلمي أكتب على صفحات أيامي اليومية (هل تعرف إنسانًا يحمل عني رايتي..؟!!).. أسير حاملًا سؤالي، قدماي تقودانني لا أدري إلى أين..؟!! زحام شديد من حولي، أجسام هزيلة تتخبط ببعضها البعض،عجبًا لا أحد يشعر بي..!! قدماي لا تقويان على حملي.. أشعر أني أنهار، أخشى أن أسقط وينفجر ما بداخلي من هموم حملتها للآخرين.. آه.. أريد أن أصرخ لا أستطيع.. الصرخة بداخلي مكتومة.. مخنوقة لا تريد الخروج، وسقطت دفعة واحدة ومن حولي تجمع المارة، سمعت من ينادي ويقول:

- الرجل سقط

والآخر يجيبه:

- ماء.. الرجل فقد توازنه وسقط فجأة..

وجاءوا بالماء محاولين إعادتي إلى وعيي فلم يفلحوا.. عندئذ صاح رجل من بينهم قائلًا:

- الإسعاف.. اطلبوا الإسعاف..

وشعرت بوقع أقدام تبتعد عن مسمعي رويداً.. رويداً،
والناس من حولي يضربون كفًا بآخر مرددين:
- لا حول ولا قوة إلا بالله.

(ـة)

وبعد وقت قصير.. قصير جدًا عاد وقع الأقدام يقترب نحوى من جديد.. يتحدث صاحبها وهو يضرب كفًا بآخر:

- ثلاث مكالمات من أجل أن أطلب الإسعاف، في المكالمة الأولى يرد (النمرة خطأ) وفي المرة الثانية صرخت بكل ما أوتيت من قوة.. الرجل وقع مغشيًا عليه.. أرجوكم أن تسرعوا بعربة الإسعاف، وبكل هدوء يرد الرجل:

(يافندم النمرة خطأ)

وفي الثالثة يرد الرجل- صاحب المرات السابقة-

(إذا حضرت لحمل المصاب سوف آخذ ورقة صحيحة بمائة جنيه)

قلت احضر ولك ما تشاء وأعطيته العنوان كاملًا وهو الآن في طريقه إلينا.

يخرج واحد من بينهم وهو يردد:

- إلى أن يأتي الإسعاف يجب أن نتعرف على شخصيته.

راحت الأقدام تلتف من حولي، حاولوا جاهدين التعرف على ملامحي، حاولوا جاهدين فك رموز وجهي بلا فائدة، يقترب واحد منهم يمسك بوجهي بين كفيه وراح يقلبه كيف يشاء وهو يردد:

- هذا الوجه لم أره من قبل..

يجيبه الآخر:

- من المؤكد أنه غريب عن هذه البلدة.

يرد ثالث:

- من الممكن أن يكون سائحًا أجنبيًّا قد جاء لزيارة مدينتنا.

وراح الرابع يعصر أفكاره مرددًا:

- أين رأيته من قبل..؟!!

سمعت من بينهم من يقول:

- بطاقته الشخصيَّة..

امتدت الأيدى داخل جيوبى تبحث وتقلب، حتى وقعت فى يد أحدهم (الراية) وتقابلت الأعين، الصمت الحجرى ساد بينهم، خرجت الكلمات من أحدهم:

- راية.. ماذا تعنى..؟!!

وجاء الصوت من بعيد يحذر:

- الإسعاف قادم.. من المسئول منكم عن هذا الرجل الغريب؟!

- ....

الحاضرون يلتفتون إلى بعضهم البعض، راحوا يتبادلون النظرات..

عاد الرجل ذاته يصرخ فيهم:

- لا بد وأن يذهب مع هذا الرجل المصاب أحد منكم، وهناك س وجيب، من منكم سيذهب معه..؟!!

....

حبال الصمت الطويل راحت تلفهم جميعًا.

عندئذ أخرج رجل من جيبه- متطوعًا- المائة جنيه ورمى بها فوق صدرى ومن قبلها الراية، وأسرع كل منهم فى طريقه.

للمرة الخمسين بعد الألف..!!

للمرة الخمسين بعد الألف تطأ قدماها عتبة الممر، دائمًا هي أول من تدخله صباح كل يوم.. تقف أمام محل (مزازيك) لتأجير فساتين الزفاف، والأكسسوارات، تخرج من جيب جلبابها المفتاح تدسه في عين الأقفال المرة بعد الأخرى.. لتوقظها من ركود نومها الطويل ليلة البارحة.. ترفع الباب الصاج الذي راح يتمطع طويلًا.. تقابلها مجموعة من الفساتين المعلقة على المانيكان..

تبتسم.. تسرع إليها بعد أن تغلق على نفسها الباب الزجاجي الداخلي للمحل.. راحت تحتضن الفساتين الواحد تلو الآخر وهي تتلمس الورد، والخرز المطرز فوق الفساتين.. في سعادة راحت تنزع أحد الفساتين.. تقف في حجرة البروفة.. سريعًا تتجرد من ملابسها.. ترتدي الفستان في سعادة.. راحت تتلمسه فوق

جسدها.. راحت تدور به أمام المرآة دورات كثيرة وضحكاتها الخارجة منها تكاد أن ترج المكان، تخلعه، سريعًا ترتدى غيره، راحت تدور به وهى تردد فى سعادة:

- الليلة الحنة وبكرة الدخلة..

تركت لخيالها العنان.. راحت تتخيل جموع المدعوين وهم يلوحون لها، وهى تحييهم فى سعادة تخلعه، تمسك بفستان أبيض مرصع بالفصوص والخرز والترتر حتى ذيله

.. ضمته إلى صدرها ثم راحت تقبله..

ارتدته فى عجالة.. اقتربت من الفاترينة الزجاجية، فتحتها وراحت تتخير فى سعادة:

- ده..لا.. لا ده.. أحسن تاج ألماظ موجود فى الفاترينه..

وضعته فوق رأسها لتصبح ملكة متوجة وهى تقول:

- أجيب ولد وبنت من الحارة يمسكوا ديل الفستان.. الولد ماسك فى إيده شمعة والبنت كمان.. وعريسى على يمينى، والزفة قدامنا، والمعازيم على الجانبين..

أمسكت بذيل فستانها الطويل بين يديها وراحت تخطو خطوات بطيئة وهى تلوح بيدها على الجانبين توزع ابتساماتها بالتساوى على المدعوين، وقفت أمام المرآة.. راحت تحدث نفسها:

- هروح عند أحسن كوافير فى البلد وأطلب منه أحسن تسريحة تكون ما حصلتش، يحكى وتتحاكى عنها البلد كلها.. أنا عايزه عريسى يفرح بيه توقفت عن حديثها.. ساد الصمت قليلًا..

الابتسامة سرعان ما هربت من وجهها.. اقتربت أكثر وأكثر من المرآة.. في حزن شديد راحت تتحسس وجهها.. الخطوط الطوليَّة والعرضيَّة ملأت وجهها.. وبعض من الشعر الأبيض انتشر في رأسها.

همست في تماسك:

- عريسي؟! هوًّا فين بس العريس؟!!

تصرخ في وجه المرآة بقوة:

- هو أنا مش بنت؟!!

صدى صوت آخر كلماتها يرتد فيعود إليها: بنت.. بنت

في غيظ شديد راحت تتحسس أنوثتها

طن.. طن.. طن.. طن

عقارب الساعة تدق التاسعة صباحًا.. على الفور راحت تمسح دموعها ببطن يدها..

وفي عجالة أسرعت إلى حجرة البروفة.. نزعت الفستان من على جسدها.. وفي ضيق شديد ألبسته المانيكان..

فجأة..

.وجدت صاحب المحل يقف على بابه، نظر إليها في ضيق شديد ثم صرخ في وجهها:

- إنتي لسه ما مسحتيش المحل.ولسه ما طلعتيش المانيكانات قدام المحل.. كل يوم على دا الحال.. أنا مش عارف أعمل فيكي إيه

لم تعره اهتمامًا.. راحت تحمل المانيكانات تباعًا ترصها خارج

المحل وهى تمسح دموعها التى غسلت (بلاط) المحل وهى تردد فى صمت:

- هو أنا مش بنت زى البنات؟! طب لما أنا بنت.. فين العريس؟!.. فين العريس؟!.. فين العريس؟!

مصباح علاء الدين

ولأنى تعودت أن أنام وأنا طفل صغير على حكايات أمى اليوميَّة، ولأنى لم أحب من حكاياتها سوى حكاية مصباح علاء الدين والفانوس السحرى..

تلك الحكاية التى توغلت بداخلى، وأصبحت تتملكنى، والتى من أجلها دومًا أصرخ فى وجه أمى، وألح عليها إلحاحًا شديدًا بأن تكف عن جميع الحكايات، وتحكى لى حكاية مصباح علاء الدين والفانوس السحرى..

***

ماتت أمى..

وماتت معها حكاياتها..

وأصبت بأرق شديد منعنى من النوم..

كل ليلة أجلس على حافة السرير ، أحك فروة رأسى فى محاولة مني لاسترجاع قصاصات قصيرة من حكايتها ، حتى أستطيع إغلاق عينى ولو لثوانٍ . .

***

يوماً وراء يوم . .
استطعت أن أتذكر تلك الحكاية . .
ويوماً بعد يوم . .
أصبحت أردد ما حكته لى أمى عن مصباح علاء الدين قبل نومى . .
أنام سعيداً . .
وكذلك أحلامى الساكنة بداخلى . .

***

بحثت طويلاً ، وطويلاً عن المصباح . . . فلم أجده . .
الأحلام الصغيرة التى تسكن بداخلى منذ الطفولة . . تكبر وتزداد يوماً بعد يوم . .

***

وقع فى يدى المصباح . .
تعلوه الأتربة . .
رحت أنفخ فى الغبار فتطاير . .
بهرنى منظره . .
قلبى بداخلى يتراقص فرحاً . .

سمعت صوتًا بداخلى يقول:

- إنه الخلاص..

أمسكته بين يدى ورحت أحك مقدمته بأصابعى حتى يفيق ويستيقظ، ويوقظ أحلامى التى نامت مع حكايات أمى..

المصباح فى يدى..

فأين.. أين علاء الدين..؟!

رحت أحك مقدمته مرة وراء الأخرى..

رحت أرجه بين يدى المرة بعد المرة..

أنهكنى الحك..

وأرهقنى الرج

هدأت أنفاسى المتلاحقة..

رحت أصرخ فى وجهه..

كى يستيقظ

ويوقظ أحلامى..

ولكن بلا فائدة..

صوت صراخى المتكرر داخلى..

أرهقنى بشدة..

وأخافنى من نفسى..

استيقظت من نومى مفزوعًا..

تلفت من حولى..

وجدت أحلامى ما زالت نائمة هادئة، تغطٌ فى نوم عميق.

المختلف..!!

المرأة الغريبة..!!

- أيها الناس.. توجد بالمسجد سيدة سقطت فجأة مغشيًّا عليها، من يُرِد أن يتعرف عليها فليدخل المسجد الآن.

استوقفتني كلمات الشيخ "مصباح" إمام وخطيب مسجد (الطاروطي).. تلك الكلمات التي حملها الهواء على أكمل وجه، وقام بتوصيلها سريعًا إلى أهالي المدينة الذين جاءوا مسرعين للدخول إلى المسجد.

تسمرت قدماي بالأرض..

راحت الأفكار تنهال على رأسي، وسرعان ما استيقظ شيطاني من نومه، وراح يعزف نغمًا حزينًا في صحراء فكري الرحب، حتى وجدتني أهذي في جنون:

- أتكون هذه السيدة هي أمي..؟!!.. أو زوجتي..!!.. أم أختي الوحيدة "سميَّة"..!!

فجأة..

وجدتني أهرول كالمجنون نحو باب المسجد الواسع الذى ضاق بدخول أهالي المدينة؛ بعدما نجح شيطاني اللعين في إشعال نار الخوف والحيرة في جسدى.

وجدت أنفاسي تخرج بصعوبة بالغة؛ من جراء الدفع والازدحام الشديدين من قبل نساء ورجال المدينة، الذين راحوا يتمتمون في خوف وفزع:

- أمي.. لم تعد من عملها حتى الآن.. استرها يارب..

- أتكون أختي..؟!! فهي لم تعد حتى الآن بعد أن خرجت لتقبض معاش المرحوم زوجها.. استرها يا ستَّار..

- زوجتي خرجت غاضبة، وأقسمت أن لا تعود إلى البيت مرة ثانية.. أتكون هي..؟!!

دقائق ووجدتني مدفوعًا وبقوة داخل المسجد، خرجت من زحام شديد لأدخل في زحام أشد، رحت أدفع الناس الملتفين حول المرأة المغشى عليها، بعد أن صنعوا منها دائرة محكمة الإغلاق.

في صعوبة بالغة أدخلت رأسي لتخترق الدائرة، وباقي جسدى خارجها، رحت أحدق في وجه المرأة المتوفاة عارية الوجه، أما باقي جسدها فهو مغطى بواحدة من سجاجيد المسجد.

وجدتني أردد في آليَّة منتظمة وأنا أقبل وجه وظهر يدى اليمنى، تمامًا مثل غيرى ممن سبقوني وحدقوا في وجهها:

- الحمد لله .. الحمد لله .. المرأة لا تمتُّ إليَّ بصلة لا من قريب ولا من بعيد .. الحمد لله أننى لم أعرفها ..

- ترى من تكون هذه المرأة ..؟!!

قالها الحاج "السيد" خادم المسجد فى أسى وحزن شديد، دنوت منه ورحت أسأله من باب الفضول :

- كيف ماتت هذه المرأة الغريبة يا حاج "سيد" ..؟!!

قال بعد أن تنهَّد تنهيدة طويلة :

- ونحن نصلى الركعة الأخيرة من صلاة العصر، فإذا بنا نسمع صوت سقوط قوى على الأرض تبعته آهة طويلة اخترقت آذاننا جميعًا، وفور انتهائنا من الصلاة التفتنا جميعًا مكان السقوط، قمنا مسرعين عندما لمحناها من بعيد وهى تشير نحونا، أسرعنا فوجدنا جلبابها قد تمزَّق تمامًا بفعل فاعل، أسرع أحدنا بستر جسدها بواحدة من سجاجيد المسجد الزائدة، سألها أحدنا عن السبب، فأجابته وهى تأخذ أنفاسها بصعوبة بالغة، وكأنها كانت مطاردة من قبل أحد :

(لم أسلم من أحد منهم، صرت مطمعًا للجميع- بعد موت كل من أحبونى وتفانوا وماتوا من أجلى- جردونى من مالى، بل واستولوا على كل ما أملك، وعندما لم يتبق ما يستحق سرقته، أرادوا اغتصابى على مرأى ومسمع من المارة، الذين لم توقفهم صرخاتى أو توسلاتى، رغم كثرة عددهم، وقوة أجسامهم، إلا أننى نجحت بتوفيق من الله تعالى فى مقاومتهم بشدة، بل ونجحت فى الهرب منهم بدخولى إلى هنا)

ثم شهقت شهقة قويّة، أتبعها توقف تام عن الكلام، اقترب منها الدكتور "عادل" الذى كان عائداً لتوه من المستشفى، قام بالكشف الدقيق عليها، ثم أعلن على الملأ وفاتها، بحثنا فى جيوب جلبابها الممزق فلم نجد ما يدل على شخصيتها، وكما ترى لم نجد بديلًا غير أن ننادى فى ميكرفون المسجد على الأهالى لعل أحداً يتعرف عليها.

صمت الحاج "السيد" مرغمًا ؛ بعد أن لفه حزن دفين، وهو يرى سكان المدينة يخرجون تباعًا دون التعرف على هذه السيدة مجهولة النسب.

وجدتنى أنجذب وبشدة إلى وجهها الملائكى الغريب عنا، فعدت أنظر فيه تارة، وتارة ثانية أنظر فى وجوه سكان المدينة، تلك الوجوه التى تدخل المسجد حزينة خائفة، وما إن تنظر فى وجه المرأة حتى تعلوها ابتسامة، ويتبعها كلمات الحمد والشكر لأنها ليست من معارفهم، وتارة ثالثة إلى الشيخ "مصباح" الذى ما زال يصرخ فى أهالى المدينة يطالبهم بالدخول إلى المسجد وكله أمل..

رويداً..

رويداً..

وجدت المسجد قد أخلى تمامًا من أهالى المدينة، ولم يعد باقيًا غيرى أنا، والحاج "السيد" والشيخ "مصباح" الذى وقف يردد فى حزن وألم:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

وذاك الشاب الأخرس المجذوب الذى لا نعرف له أصلًا أو نسبًا، ولكنه يظل يجوب شوارع المدينة ليل نهار وهو حافى القدمين ليبصق فى ضيق وغلٍ فى وجوه من يقابلهم من الرجال، رغم أنه لم يضايقه أحد منهم، جذبنى صوت بكائه ونحيبه المتواصلين دون انقطاع منذ أن وقعت عيناه على وجه تلك السيدة الغريبة، سحبتنى قدماى إليه حتى وقفت أمامه تمامًا، ورحت أرميه بوابل من الأسئلة:

- لماذا كل هذه الدموع أيها الأخرس..؟!!

- ....

- هل تعرف هذه السيدة..؟!!

- ....

- أو تعرف من يعرفها..؟!!

- ....

- كف عن بكائك وأجبنى.

- ....

- إن كان ليست لديك إجابة فلماذا تبكى بحرقة هكذا..؟!!

- ....

- هون عليك إنه مسكين وبالله، ثم إنه أخرس والجميع يعلم ذلك.

قالها الشيخ "مصباح" وهو يضع يده على كتفى، التفت إليه غاضبًا:

- أعلم أنه لا يستطيع الكلام، لكنه يعرف حديثنا من خلال حركات الشفاه، ويستطيع أن يجيبنا من خلال حركات تعبيريّة من يديه، حركة أو حركتين أو ثلاث تخرجنا مما نحن فيه..

- إن كانت لديه أجابه لفعلها كما تقول..

- وإن كان ليست لديه إجابة.. فلماذا يبكى كل هذا البكاء؟! لماذا؟!

وطأت قدماى خارج المسجد، وعيناى ما زالتا على ذاك الأخرس الذى لم يتوقف نهر دموعه.

-٢-

-أيها الناس يوجد داخل المسجد جنازة سيدة، من أراد أن يصلى عليها فليتفضل..

استوقفتنى كلمات الشيخ "مصباح" التى لم تتوقف قط..

وجدتنى مدفوعًا وبقوة للدخول إلى جوف المسجد..

وقفت مذهولًا عندما وجدت ذاك الأخرس، وهو يحتضن (نعش) المتوفاة وهو ينخرط فى بكاء ونحيب شديدين، وجدتنى أضرب كفًا بآخر، وأنا أهمس فى عجب مما أراه:

- أتبكى على كل متوفاة..؟!!

اقتربت من الحاج "السيد" وأنا ما زلت أجفف وجهى من ماء الوضوء، ورحت أسأله مستفسرًا:

- من تكون هذه السيدة..؟!!

أجابنى وأصابعه تحرك حبات المسبحة فى آليَّة منتظمة، وعيناه على (النعش) الموضوع فى منتصف المسجد:

- هى نفس السيدة مجهولة النسب؛ التى سقطت هنا منذ أيام قليلة، ولم يتعرف عليها أحد و..........

قاطعته بدوری :

- أو لم يتعرف عليها أحد من وقتها . . ؟ ! !

قال والدموع تود الفرار :

- لا لم يتعرف عليها أحد ، وكنا قد أبلغنا قسم الشرطة الذى حضر ، ثم قام بالاتصال بمدير المستشفى الذى أرسل عربة إسعاف ، وحملوها ثم أودعوها فى ثلاجة المستشفى بعد أن قام المصور الذى أرسل من قبل قسم الشرطة بتصويرها ، وتم نشر صورها فى جميع الجرائد الرسميَّة ، وغير الرسميَّة ، بل وتم بث صورتها عبر شاشات التلفاز عبر فترات متقاربة ، وعندما صحبنى معه الشيخ "مصباح" إلى المستشفى لمعرفة آخر ما استجد من أمور أو تطورات لهذه السيدة ، جاءنا الرد سريعًا قويًا كطلقات رصاص :

(لم يتعرف عليها أحد)

تخيل رغم نشر صورتها فى جميع الجرائد ، وعبر شاشات التلفاز ، رغم كل هذا وأكثر منه لم يتعرف عليها أحد ، حزن الشيخ "مصباح" وأقسم على ألا نخرج من المستشفى إلا وهى معنا لدفنها فى مقابر الصدقة ، ثم إذا به يطرق باب المدير الذى رحب ووافق على الفور بعد أن يوقع الشيخ بالتسلم ، وذهبنا لنراها جثة خارجة من ثلاجة المستشفى ، أسرع الشيخ حيث مكتب المدير ليستفسر منه عن سبب هذه الدماء المتجمدة فى أماكن كثيرة من جسدها ، فأجابنا المدير مبتسمًا وهو يقتل آخر نفس فى سيجارته فى (الطفاية) المدكوكة عن آخرها بأعقاب السجائر :

(لقد أصدرت دار الإفتاء المصريَّة بالاتفاق مع وزارة الصحة بشرعيَّة التبرع بنقل أعضاء من المتوفين، لصالح المرضى الأحياء، فكان لنا الفخر فى أول مستشفى يقوم بتطبيق هذا القرار)

صرخ الشيخ فى وجه المدير:

(لكنه ظلم وحرام)

(اخفض من صوتك أيها الشيخ.. ألم تعلم أن الجدران قد صار لها آذان تسمع، وما تسمعه تنطق به دون خوف، ثم إننا لم نأخذ منها كل شيء، وإليك ما أخذناه حتى تعلم أننا نحبها)

ثم فتح الدفتر النائم أمامه على ظهره، قلب فى أوراقه سريعًا، ثم أردف مبتسمًا:

(القرنيتين، والكليتين، والكبد، وشعرها الطويل الناعم كشعر الخيل لنستخدمه عند انتهائنا من العمليات الجراحيَّة، وما تبقى تركناه لكم لتدفنوه ؛ لينعم به الدود)

لفنى و الحاج " السيد " صمت مميت..

صوت بكاء الأخرس الذى لم يتوقف لحظة واحدة مما جعلنى على ثقة بأنه يعرفها جيدًا، أو على الأقل يعرف من يعرفها، ولكن كيف لى أن أثبت ذلك..؟!!

- الصلاة على المتوفاة..

وقفنا خلف الشيخ " مصباح " الذى أجهده كثرة النداء..

نظرت عن يمينى تارة.. وتارة ثانية عن شمالى، عجبت عندما وجدت عدد المصلين يكاد أن يعد على أصابع اليدين..

جن جنوني للمرة (..........) ونحن في طريقنا إلى دفنها ، لقد رأيت ذاك الأخرس وهو يمسح بيديه في حنان دافئ فوق نعشها الخشبي ، بل ومن حين إلى آخر يقبله ، ودموعه لم تتوقف لحظة واحدة ، كيف له أن يأتي بكل هذه الدموع .. ؟ ! ! لا أدري ..

تعجبت وأنا أرى خادم المقابر وهو يبني صفوفًا من الأحجار فوق بعضها البعض بعد دفنها ، وكأنه يخشى أن تعود إلى الحياة ثانية .

انصرفنا جميعًا ..

وجدتني أفتش في الوجوه عنه فلم أجده ..

أبطأت الخطا حتى نجحت في أن أغافلهم وأتخلف عن الركب

عدت مسرعًا حيث قبرها ، وجدته يجلس أمام قبرها وهو لم يزل يبكي في حرقة أشد ..

غريزة حب الاستطلاع تكاد أن تفتك بي .. جعلتني أتوارى خلف أحد المقابر ، ورحت أراقبه عن قرب وفي صمت وحذر شديدين ، لعلي أصل إلى هدفي المنشود (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا) .. ما زال يبكي وهو يتمسح بقبرها ، شمس أغسطس الحارقة جعلتني أتصبب عرقًا وألمًا ، وهو لم يأت بجديد حتى يريحني مما أنا فيه ، فجأة وجدته يدس يده داخل جيبه ، ويخرج شيئًا راح يمرره فوق رأس القبر ، رحت أتتبع ما يفعله ، وجدته قد رسم قوسين من الورد ، ثم راح يكتب داخلها كلمات وجملًا لم أستطع قراءتها لضعف بصري ، رحت أهدئ من نفسي الثائرة الحائرة :

- عليكِ بالانتظار قليلًا حتى تتضح معالم الأمور، مضى الكثير ولم يتبق غير القليل.. القليل جدًا.. جدًا..

ها هو يقوم من مكانه..

راح يقبل باب القبر مرات عدة ثم انصرف وهو ما زال يجهش بالبكاء، انتظرته حتى اختفى تمامًا وسط القبور، أسرعت إلى قبرها، رحت أقرأ على نفسي سطور ما كتبه بصوت مرتفع وسريع خشية عودته مرة ثانية:

- هنا قبر أمي وأمك الست مصريَّة.

قلم ينزف دمًا..!!

فجأة وجد نفسه يزجُّ به داخل حجرة شبه مظلمة ليصبح سجينًا بين أربعة حيطان..

راحت عيناه تتفحصان المكان جيداً..

الحجرة ضيقة جدًّا.. جدًّا..

تلك الحجرة التى يطلقون عليها حبس انفرادى

توقفت عيناه طويلًا أمام شباك صغير.. صغير جداً محاط بأعمدة حديديَّة متداخلة فى بعضها البعض سمراء اللون.. ورغم تلك الأعمدة الحديديَّة السميكة إلا أن الهواء قد أفلح فى الدخول والخروج متسللًا من بين فتحاته تمامًا كاللص..

يدخل بصيص من الضوء الباهت القادم من بعيد من قرص الشمس والذى يشعر من بداخل الحجرة أنه مازال على قيد الحياة..

ذلك الضوء الذى يتقوقع هو الآخر فى ركن الحجرة

ولكنه سرعان ما يخرج سريعًا من حيث أتى خشية أن يزج به هو الآخر داخل أسوار السجن..

في محاولة طفوليَّة منه راح يمسك بين يديه آخر خيوط الضوء قبل أن تهرب من الحجرة.. ولكنه سرعان ما يكتشف أنه قد احتفظ باللاشيء..

***

راح يتشمم رائحة عرقهم..

امتدت أصابعه تتحسس جدران الحجرة المرتسم عليه قطرات دمائهم المتجمدة..

تبسم عندما تأكد أن رائحة هذه الدماء المختلطة برائحة عرقهم لأناس يعرفهم تمام المعرفة.. إنها لأصدقائه وزملائه وأساتذته من الكتاب الذين زجَّ بهم داخل هذه الحجرة.. فمنهم من خرج ومنهم من مات داخلها..

(ادخل يا مجرم.. يا مخرب)

راح يسترجع لحظة القبض عليه ودخوله عربة الترحيلات.. وعن قضيته التي من أجلها أصبح سجين هذه الحجرة.. عندما انطلق عصفوره واقترب ليلتصق من أناس بسطاء وليغامر بالخوض في أحلامهم وأحزانهم ومآسيهم وراح يعايش وجدانهم وانفعالاتهم الوطنيَّة والقوميَّة..

هذه الشخوص التي ترفض أن تموت بالمجان..

هذه الشخوص التي تحفر بأظافر من حديد مخرجًا يقودهم إلى

التحرر من سيطرة الطبقات فوق العليا .. تلك الطبقة الكاتمة- بقوة- فوق أنفاسهم ..

***

ينتفض عصفور البوح بداخله ..

ينتفض من ركود نومه ..

راح يبحث .. ينقب عن قلمه الحبر ودفتر أوراقه البيضاء / صديقيه اللذين لا يفارقانه لحظة واحدة ..

تبسم ساخراً عندما راح يتذكر لحظة دخوله (الحبس الانفرادى)

عندما نزعوا عنه ثوبه الأبيض وألبسوه ثوبهم الجديد ..

حزيناً جلس واضعاً رأسه بين ركبتيه ..

العصفور القابع بداخله ما زال يضرب بجناحيه ..

العصفور القابع بداخله ما زال يغرد فى فضاء قلبه اللانهائى.

ينطلق الصوت الهادر من جوف مظلم ..

راح يتردد صداه ..

((اكتبنى .. اكتبنى .. اكتينى ..))

جن جنونه ..

قام من مكانه ..

راح يخطو خطوات كثيرة متوترة داخل الحجرة وهو يسأل نفسه من وقت لآخر عن وسيلة يستطيع من خلالها أن يدون بها أفكاره / كلماته كما تعود كلما استيقظ عصفوره ..

صوت العصفور يعاود اختراقه مرة أخرى بشدة ..

((أخرجني.. اكتبني.. أخرجني.. اكتبني..))
في غضب عارم ظل يضرب جدار الحجرة.. صارخًا في وجهه:
- لا بد أن أجد حلًا...
لا بد أن أجد حلًا...
عصفوره..
وليده..
داخل أحشائه يتألم.. يتأوه.. يصرخ بشدة من أجل الخروج
رويدًا.. رويدًا..
راحت تتوقف تحليقاته..
غيظه الشديد بداخله ما زال يأكله.. وهو يجوب الحجرة يفتش داخل رأسه عن عوض لقلمه..
راح يضرب كفًّا بآخر وهو يردد في عصبيَّة:
- لن يموت العصفور..
لن يموت العصفور..
صوت العصفور راح يلفظ بقايا صوته الذى قد بح تمامًا..
((سوف أموت.. أخرجني.. اكتبني..))
خرج العصفور منهكًا..
حزينًا..
بائسًا..
بلا أمل..
بلا قوة..

راح يتخبط بجدران سجن الواحات..

يقع..

وسرعان ما يقف مرة أخرى فى تثاقل شديد..

راح يحك رأسه المتعب بأظافره الممتدة بشدة كما تعود أن يتركها مثل شعره..

تبسم وهو يحدق بشدة فى أظافره..

***

نجح فى صنع أقلام كثيرة جديدة لم يألفها أحد من قبل..

سعيداً..

سريعاً..

راح يدون أفكاره فوق جدران سجنه..

تلك الأفكار التى راحت تتخلق.. تتحرك شخوصها لتحاوره ويحاورها..

***

اكتشفوا حيلته..

قصفوا كل أقلام أظافره التى أطالها..

لم يكفهم ذلك بل قاموا بدهان جدران سجنه باللون الأسود لتموت كل أفكاره التى دونها.. وحتى يصعب عليه الكتابة..

يوماً وراء يوم..

يدخلون عليه يقصون ما نبت من أظافر يديه أو رجليه..

***

«أخرجنى.. اكتبنى.. سوف أموت..»

جدران الحجرة راحت تضيق رويداً.. رويداً حتى أنه لم يعد يستطيع أخذ أنفاسه..

عاد يفكر من جديد فى وسيلة أخرى للتعبير بها عن أفكاره دون أن يشعر بها أحد.. بعد أن ماتت أمام عينيه الكثير.. والكثير من عصافير أفكاره دون أن يكتبها..

***

راح يتأوه.. يتألم بشدة وجسده ينزف دماً أمام عينيه من جراء تدوين أفكاره بقلمه الجديد (سنة) من صف أسنانه الأمامى.. تلك (السنَّة) التى أفلح فى خلعها كأفضل طبيب ثم قام ببريها فوق بلاط الحجرة حتى أصبحت مقدمتها كحد السكين وراح يدون بها أفكاره فوق جسده..

ارتدى بنطاله بعد أن انتهى من الكتابة..

فجأة..

اعترضه سؤال.. ذلك السؤال الذى راح يحلق فى فضاء حجرته فى كبرياء وهو يقول:

((ماذا تفعل بعد أن تمتلئ صفحة جسدك بكتاباتك...؟!!))

المختلف..!!

رحنا نتراص كقوالب الطوب (النى) داخل علبة السردين، أقصد داخل الميكروباص الحديدى المتآكل بشدة كأجسادنا، وكلما دخل علينا راكب جديد، أجد الركاب يتهامسون فى غيظ شديد:

- يا مسهل يارب..
- هوِّن يا مهون..
- باقى كده كام راكب يا جماعة..؟!

تمنيت لو أن شيئًا ما يحملنى حملًا ويسقطنى فوق السرير؛ لشدة سيرى طيلة اليوم بحثًا عن عمل.. أى عمل.. المهم أن أجد (قوت) يومى الذى من خلاله أستطيع الزواج من "وطنيَّة" حبيبة قلبى، التى يطمع فيها كل شباب القرية بل والقرى المجاورة، لم يكفهم هذا بل هم يتصارعون عليها، كما تتصارع الذئاب على

الفريسة، ليس حبًا فيها ولكن حبًا وطمعًا فيما تملكه من أموال، وأفدنة زراعيَّة قد ورثتها عن والدها، وراح يبعثرها فى حريَّة مطلقة زوج أمها، ذلك الرجل الذى أجلسوه رغمًا عنا على كرسى العموديَّة، فراح يخرب فى البلد كيفما يشاء، ذلك الرجل الذى صنع شبكة جيدة الصنع للإيقاع بأمها فور موت زوجها، وقد نجح بجدارة، وفاز بالزواج منها وبما ورثته عن زوجها، ولولا طيبة أمها وتمسكها الشديد بى، وعلمها بحبى ومدى إخلاصى لابنتها "وطنيَّة" منذ الصغر، ولولا حديثها الدائم والمستمر لزوجها عنى من أجل أن تلطف الجوَّ فيما بيننا، لما صبر علىَّ طيلة هذا الوقت فى البحث عن عمل؛ فهو رجل مادى يقدس الجنيه بل يفضله على أبيه، وهذا ما يتردد على أفواه رجال ونساء بل وأطفال القرية والقرى المجاورة.

- نادوا على السواق.. العربيَّة كملت..

قالها فرحًا أحد الركاب، وراحت عيوننا بدورها تفتش هنا وهناك عن السائق الذى جاء يتبختر على مهل وهو يأخذ أنفاسًا متتالية من سيجارته.

عجبًا إنه قريب الشبه بعمدة قريتنا ذاك الحاكم بأمره..

وقف أمامنا..

راح يحدق فى وجوهنا وهو ممسك بباب الميكروباص، ثم قال فى قرف شديد:

- مالكم فيه إيه..؟!!

أجابه أحدنا :

- الميكروباص كمل . .

- ومين قالك إن الميكروباص كمل . .

- زى ما أنت شايف ما فيش كرسى فاضى ، الكراسى كلها كومبليت

- والله إنت اللى مش شايف . .

ثم راحت عيناه تحدقان فى عيوننا ثم قال :

- أنى حركّب الضّعف يا افنديّة ، واللى مش عاجبه يتفضل ينزل ، الباب يفوت بدل الجمل جملين . .

- بس الضّعف ده حتركبه فين يا أسطى . . ؟ ! !

- لو حصّلت حاقعد كل واحد على رجل التانى . .

صمت برهة ثم عاد يقول :

- قلتوا إيه . . ؟ ! !

- رحنا نحدق فى بعضنا البعض فى صمت واستسلام أبدى . .

- قلت أنا مش عاجبنى . .

قالها الشاب الجالس بجوارى فى قوة وغيظ . .

غاضباً مد يده يفتح باب الميكروباص

- هو فيه إيه . . ؟ ! !

قالها السائق فى ثقة وسخرية ، ومن خلفه أجابه الشاب بنفس لهجته :

- فيه إن الحال ده مش عاجبنى . .

في تعجب من أمره، قال السائق وهو يهرش كرشه:

- يعنى إيه..؟!!

- يعنى أنا مش عبد عشان أسمع في استسلام أوامر سيدى، في سرعة غاضبة راح السائق يقول مستفسرا:

- يعنى مش حتركب..؟!!

- لأ..

قلت من خلفه:

- ده آخر ميكروباص في الموقف و........

قاطعنى الشاب المختلف في قوة وعناد:

- مش مهم..

ومن خلفى قال أحد الركاب:

- إحنا في الشتاء والجو برد والساعة دلوقتى واحدة بعد نص الليل، وباين على الحتة إنها حتمطر و......

قاطعه هو الآخر في حدة وثقة:

- برضه لأ.. حتى لو اضطرتني الظروف إني آخد الطريق زحف على إيدى ورجلى..

- هاء.. هاء.. هاء.. هاء

ضحك صاحب الميكروباص ضحكات كثيرة متتالية، تلك الضحكات التي جعلت (كرشه) الممتد أمامه يعلو ويهبط في صورة منتظمة كما الأرجوحة، ثم قال ساخرا:

- عايز تفهمنى إنك حتمشى المسافة دى كلها على رجلك و....

قاطعه الشاب فى ثقة :

- أيوه . .

- وفى ساعة زى دى . . ! !

- أيوه . .

- طب ورينى جمال خطوتك . .

وقبل أن يتحرك هذا الشاب المختلف أوقفته كلمات أحدنا :

- اركب وانت اللى حتقعد على رجلى مش إنت . .

تبسم الشاب فى وجهه ساخراً ثم قال :

- الفكرة مش فى كده خالص . . الفكرة فى إننا استسلمنا واستسهلنا كلمة نعم . . أو حاضر ، وبكده حنفضل على طول نقولها بشكل أو بآخر ، أنا مش تلميذ فى الفصل عشان أوطى راسى وأقول حاضر يا أستاذ ، السلام عليكم أشوفكم على خير .

قالها الشاب فى ثقة ، ثم راح يحدِّق فى وجوهنا وانصرف فى تحد صارخ . .

فى ضيق وقرف شديدين رأيت صاحب السيارة يحدِّق فى الشاب المختلف حتى غاب عن الأنظار تماماً .

التفت إلينا السائق وراح يقول فى خبث وثقة :

- يالللا خلى ديابة الجبل تتعشى بلحمه ، والكلاب تحلى بعضمه . .

قلت هامساً مستفسراً من الرجل الجالس بجوارى :

- صحيح الكلام اللى بيقوله الأسطى ده . . ؟ ! !

- أيوه صحيح تقدر تقول عليه من دلوقتي الله يرحمه..

- يستاهل هو اللى جابه لنفسه، يعنى كان لازم يطلع فيها ويقول الكلام الكبير ده اللى هو مش قده، خليه يستلم بقى.

رويداً.. رويداً.. رحنا نتراصُّ داخل علبة السردين التى امتلأت عن آخرها بضعف العدد.

عدنا ننادى على السائق مرة ثانية، فجاء على مهل وقبل أن يغلق باب سيارته راح يلقى علينا نظرة طويلة متفحصة وهو مبتسم ابتسامة المنتصر، ثم قال فى أمر كالواثق من نفسه:

- الأجرة زادت من تمانيه جنيه بقت بعشره جنيه..

عدنا نحدِّق فى وجوه بعضنا البعض، دون أن يتفوه أحدنا بكلمة واحدة، خرج أحدنا عن صمته وقال:

- من إمتى الكلام ده يا اسطى..؟!!

- من دلوقتى..

- طب واللى مش معاه..

- يتفضل ينزل زى الجمل اللى نزل..

ومن خلفه قال ثان:

- طب خليها تسعة جنيه يا اسطى..

- عشره جنيه.. واللى مش عاجبه ينزل..

عدنا نحدق فى وجوهنا الممصوصة، يلفنا صمت دفين ثُم خرجت أصواتنا متوحدة فى خضوع واستسلام أبدى:

- ماشى يا اسطى..

قال السائق وهو يغلق باب الميكروباص:

- ناس ما تختشيش صحيح.. ناس ما بتجيش غير بالعين الحمرة، ثم نفخ فى وجوهنا دخان سيجارته، وأتبعها بضحكة عالية.

عاد وفتح الباب بعد غلقه وراح يقول فى ثقة، وهو يحدق فى وجوهنا:

- أه نسيت أقول العشره جنيه أجرة الفتوه اللى نزل ده هتتقسم عليكم..

قالها السائق آمراً..

عدنا نحدّق فى وجوه بعضنا فى عجز، دون أن يتفوه أحدنا بكلمة

- قلتوا إيه..؟!!

خرج عليه صوت أحدنا:

- واحنا ذنبنا إيه يا اسطى..؟!!

رد فى ثقة وكبرياء:

- السيئة تعم والحسنة تخص..هاء.. هاء.. هاء.. هاء - قلتوا إيه..؟!!

أعادها علينا السائق ثانية..

قلنا فى توحد وتناغم:

- موافقين..

انطلق الميكروباص..:

وأغلقت نوافذه كلها من جراء البرد الشديد..

وتعالت أصوات شخير الركاب..

وراحت رأسي تتحرك يمنة ويسرة، لعلي ألمح طيف هذا الشاب المختلف، وجدتني أسائل نفسي في حيرة شديدة:

- لماذا تهتم به هكذا..؟!!

- ربما كان صوتي الذي تمنيت أن يخرج فخشيت أن أخرجه

- ترى هل سيصل في أمان وسلام..؟!!

- ....

أخرستني مفاجأة السؤال..

صمتُّ برهة ثم رحت أقول:

- وكيف يصل والطريق - كما أرى - مقطوع.. مقطوع تماماً، ليس به (صريخ ابن يومين) حتى أعمدة الإنارة غير موجودة، ومنذ خروج الميكروباص لم تر عينك قط سيارة تسير بجوارنا، أو حتى تسير عكس الاتجاه.. فكيف يصل..؟!! وما زاد (وغطى) الأمطار التي لم تتوقف لحظة واحدة منذ خروجنا من الموقف بخمس أو عشر دقائق تقريباً.

رأسي كاد أن ينفجر دون الوصول إلى إجابة.

خوفي الشديد عليه جعل النوم يخاصم جفوني، وكلما قررت أن أوقظ أحد الركاب لأتحدث إليه عن هذا الشاب المختلف، يمنعني صوت شخيره المرتفع، فأتراجع على الفور، وأعود لأحدث نفسي في همس وخوف..

- عملتها..

قالها السائق ولم يسمعه غيرى..

قلت مستفسراً وهو يهدئ من سرعة الميكروباص:

- فيه حاجهة يا اسطى..؟!!

- الفردة اللى على الشمال من قدام هوِّت.. ولازم أغيرها، صحى النايمين دول على طول عشان يساعدونا..

- ياللا يا خويا منك له..

قالها السائق فى غضب، فاستيقظ الجميع رغماً عنهم..

نزلنا جميعاً دون إرادتنا..

منا من أخرج (الإستبن) من مكانه..

ومنا من راح يساعد السائق فى (حل الفردة) ومجموعة منا راحت ترفع السيارة عن الأرض قليلاً حتى يركب (الفردة) الجديدة، لعدم وجود (كريك) يرفع به السيارة..

أما أنا فرحت أحدق فى اللاشىء، أدخل عينى فى الظلام الدامس لعلى أعثر عليه عندئذ أستحلفه بالله أن يركب معنا،

منعنى الظلام من رؤيته، أو حتى على ما تبقى منه..

عاد وتحرك الميكروباص مرة ثانية، ووجدت السائق يسير هذه المرة فى بطء شديد لعدم وجود (إستبن) آخر، كما قال لنا مسبقاً، قلت وأنا أجفف ماء المطر من فوق ثوبى تارة، وتارة أخرى أحدق فى وجوه الجالسين من حولى:

إنه ذنب الشاب المختلف، الذى فرطنا فيه بسهولة.. نعم

فرطنا فيه بسهولة..

- الأجرة.. الأجرة

راح يرددها السائق علينا، قلت مستفسراً في ضيق:

- إحنا وصلنا..؟!!

- لأ.. إحنا في نصف الطريق..

- طب لما نوصل بالسلامة إن شاء الله..

- أنا باقول صحيهم دلوقتى.. وخليهم يلموا الأجرة دلوقتى حالًا، واللا تحبوا أنزلكم في وسط الطريق، خلى الديابة والكلاب تنهش لحمكم..؟!!

- لأ.. لأ يا اسطى حنلم الأجرة من بعض حالًا..

قالها الركاب في صوت واحد، رغم أنهم كانوا شبه نائمين..

تناول السائق- من أحدنا مجموع الأجرة والذى قام متطوعًا بجمعها- وراح يعدها على مهل، وما إن انتهى من عدها على أكمل وجه، إلا وعاد يعدها مرة ثانيه من جديد بصوت مسموع، وسرعان ما صرخ فينا قائلًا:

- الأجرة دى ناقصة الجدع اللى نزل..

رحنا نتلفت نحو بعضنا البعض في مذلة دون أن يفتح أحدنا فمه ويخرج كلمة واحدة..

- فين أجرة اللى نزل..؟!!

- بس يا اسطى...............

قالها أحدنا الذى منعه خوفه من أن يكمل جملته لنهايتها..

- ولا بسبس.. ولا نونو.. أنا باقول قسموا أجرة الأمُور اللى نزل بينكم وبين بعض، إنتوا سامعينى طبعًا..؟!!

- طبعًا.. طبعًا يا اسطى..

وسرعان ما راحت تتعالى أصواتنا لتحتج على بعضنا البعض:

- أنا مش معايا..

- ولا أنا..

- وإحنا ذنبنا إيه..

- هاء.. هاء.. هاء.. هاء

السائق ما إن سمع ورآنا على هذه الحال حتى ظل يضحك.. يضحك علينا بشدة..

- أيوه كده..

قالها السائق وهو يضع (فلوس الأجرة) كاملة- كما أمر- داخل جيبه بعد أن قام بعدها مرات عدة فى تلذذ شديد..

- خ.. خ.. خ.. خ.. خ.. خ..

فى توحد وتناغم مستمر عادت أصوات شخيرهم ترتفع من جديد..

- حمد الله على السلامة..

قالها السائق فى سخرية..

استيقظ الجميع..

نزلنا تباعًا كالسكارى الحيارى..

بعيون أجهدها الحزن والألم والشوق إلى الحريَّة، رحنا نحدق فى وجه الشاب المختلف الذى وصل قبلنا وانتظرنا.

- إزاى وصل . . ؟ ! !

- وإمتى وصل . . ؟ ! !

- . . . .

- . . . .

أسئلة كثيرة . . كثيرة جداً رحنا نطلقها فى الهواء، دون الوصول إلى أى إجابة .

يده فى يدى..!!

الولد "أسامة" - جارنا - ابن الأستاذ "سمير".. دائماً يعاندنى، بل ويضطهدنى فى كلامه وحركاته؛ رغم أنه أصغر منى فى السن والطول والعرض.. لقد حاولت فى مرات عديدة أن أغير من موقفه هذا.. ولكنى فى كل مرة أفشل.. لقد تعجبت من اضطهاده الشديد لى، ولماذا أنا بالذات دون غيرى..؟!! رغم أننى لم أرتكب فى حقه أى شىء يغضبه.. بل هو الذى يستفزنى للغلط، وكان آخرها أول من أمس عندما وقف أمامى كعمود نور خرب؛ ليعترضنى، مانعاً دخولى الشارع وهو يقول بأن بيتنا هو البيت الوحيد فى الحارة بأكملها الذى به مسلمون، ويجب علينا أن نرحل من هنا..عندما سمعته أمه يقول ذلك.. أسرعت إليه.. أمسكته من أذنه وراحت- بشدة- تضغط عليها بإصبعيها وهو يصرخ ويتقافز من شدة

الألم. .بل والأكثر من ذلك عندما عرف والده الأستاذ "سمير" بما قاله، أمسكه هو الآخر وأقسم بالله والمسيح أن (يمده) على قدميه حتى يطرد تلك الأفكار الغريبة من داخل رأسه. .

***

عجبت لأمر أسامة، رغم ما يراه من حب وصداقة بين الأسرتين.

فأبوه دائمًا يأتي لوالدي بعد صلاة العصر حاملًا بين يديه (الدومينو) وكرسيًا خشبيًا، وما إن يراه أبي حتى يخرج هو الآخر حاملًا بين يديه كرسيًا و (ترابيزة) صغيرة. . يجلسان أمام عتبة دارنا يلعبان (الدومينو) وصوت ضحكاتهما يكاد يرج البيوت من حولهما. .حتى أمه الست "تريزة" لم تتوقف يومًا عن دق بابنا؛ كي تذهب بصحبة أمي إلى السوق ليبتاعا الخضار كما تعودا منذ سنوات، حتى اعتقد بعض النسوة اللاتي لا يعرفنهما أنهما أختان توأمتان.

وفي ميعاد الغداء، وبعد أن ينضج (الطبيخ) تطلب مني أمي أن آخذ طبقًا مما صنعته يدها كي أوصله إلى جارتها المحبوبة الست "تريزة" . . وما إن ترني حتى يتهلل وجهها فرحًا وهي تقول:

(ريحة الحبايب هلّت. .)

تأخذ مني الطبق. . وبدورها تعطيني طبقًا مملوءًا بخضار الغداء، وهي تعلن أسفها الشديد:

(ربنا يهديه. .)

تقصد بدعائها ابنها " أسامة " لأنه يرفض أن يدخل بيتنا.

***

يبدو أن الولد "أسامة" لم يتب عن عناده معى؛ برغم ما فعله أبواه من قرص فى الأذن ومد على الأرجل، فبعد خروجنا من مدرسة الإنجيليَّة الإعداديَّة.. كان " أسامة " يتقدمنى، ويبدو أنه شعر بوجودى خلفه، وما إن وطأت قدماه مدخل الحارة حتى أخرج من جيب حقيبته أصابع الطباشير الواحد تلو الآخر وظل يرسم على جدران المنازل (الصليب)، ولم يكفه ذلك بل راح يخرج لسانه لى من حين إلى آخر حتى انفجر بركان غيظى، على الفور وجدتنى أخرج - أنا الآخر - أصابع الطباشير الواحد تلو الآخر ورحت أرسم الهلال.. أغضبته فعلتى.. فأمسك حجراً ورمانى به.. تفاديته وتنحيت جانبًا.. أسرعت إليه.. وضعت رأسه أسفل إبطى وأوقعته على الأرض، ورحت أضربه ضربات عديدة فى جسده، علا صراخه.. تجمع أبوانا.. ضربه أبوه.. وضربنى أبى بشدة.

***

لم أعد التفت لما يفعله "أسامة" ؛ لأننى قررت تجاهله تمامًا.. والفضل يرجع فى ذلك إلى أبى، فبعد أن ضربنى أبى أجلسنى أمامه وراح يقول:

(يا ابنى الآية الكريمة بتقول: "لكم دينكم ولى دين")

لم أفهم ماذا يقصد..

عاد يقول:

(يا حبيبى همَّا ليهم دينهم.. واحنا لينا دينًا.. المهم بيجمعنا حب واحد، ووطن واحد، وهنفضل حبايب، والنبى الكريم وصَّى

على سابع جار، وهما أول جار، الحيط فى الحيط..)

يوم........

يومان.......

أسبوع......

أسبوعان....

يرانى "أسامة" فيلفت وجهه فى اتجاه آخر، وأنا مثله تماماً لا أريد النظر إليه، حتى حدث ذات يوم أن جاءنى من يخبرنى بأن هناك من يضرب الولد " أسامة " .. تبسمت، وقلت لمن جاء يخبرنى:

- أحسن خليه ياخد على دماغه..

ولكنى عدت وتذكرت حديث أبى..

(بيجمعنا حب، ووطن واحد، وهنفضل حبايب..)

فأسرعت إلى مكانه، لا أدرى كيف وصلت، كل ما أذكره أننى أمسكت بمن يضرب " أسامة " وضربته فى وجهه- رغم أنه يكبرنى فى كل شىء- فعاود وضربنى ضربة قويّة أوقعتنى أرضاً، رحنا نتبادل الضربات فيما بيننا، حتى جاء " أسامة " من الخلف ودفعه بشدة فأوقعه على الأرض، وتكاتفنا ورحنا نضربه ضربات عديدة متتالية، لم يصمد أمامنا طويلًا فهرب مسرعاً..

أسرع "أسامة" وجاء لى بالبن من البيت ؛ كى يوقف الدم المتساقط من وجهى..!!

***

بعد أن شفيت تماماً..

جاءنى "أسامة" وفى يديه علبة من الطباشير ذات الألوان المختلفة، ودعانى للخروج معه إلى الشارع، ففعلت بعد إلحاح شديد منه، فتح علبة الطباشير.. قسم ما بها إلى نصفين نصف له والآخَر لى، ثم راح يرسم فوق جدار المنزل الصليب، وغمز لى بطرف عينيه، على الفور فهمت مقصده ورحت أرسم الهلال وهو يحتوى الصليب، وأصابع يدى تتشابك فى يد " أسامة ".

تناغم موسيقى ..!!

قام الأستاذ "محمد" من مكانه، راح يخطو خطوات بطيئة متثاقلة نحو مطبخه- الذى يكاد أن يشبه علبة الكبريت- ليصنع بنفسه طعام إفطار يوم العاشر من رمضان، بعد أن حدَّق النظر جيداً فى ساعة الحائط المعلقة بجواره.

أمسك عود الكبريت المشتعل، وباليد الأخرى راح يفتح فم البوتوجاز..

- وهوَّه دا وقته..

غاضبًا قالها بعد أن اكتشف أن أنبوبة البوتوجاز قد أعلنت عن وفاتها تماماً، عاد يجر قدميه وهو يحدث نفسه متجهاً حيث يجلس الموبايل ؛ بعد أن راح (يحك) وبشدة أسفل ذقنه طويلًا وهو يفكر فى حل لما هو فيه.

- آلوه..

- أيوه يا محمد خير..

- إنت فين..؟!

- أنا والعيال وأمهم معزومين برّه على الإفطار عند واحد صاحبي، خير فيه حاجة..؟!

صمت برهة ثم سرعان ما راح يقول في عصبيّة شديدة:

- لأ..لأ أنا حبيت أطمئن عليك؛ لأني من زمان ماسمعتش صوتك، مع السلامة.

- الله يسلمك..

في قرف شديد وجد نفسه يحدق في وجه الموبايل، وكأنه هو المتسبب الوحيد لما هو فيه، خجله الشديد منعه من أن يطلب من أخيه الوحيد أن يرسل إليه أنبوبة، وكيف يطلب منه وهو وأسرته خارج البيت..؟!

عاد وأمسك بالموبايل، وسرعان ما راح يقرأ الأسماء في سرعة متناهية، بشدة ضغط فوق الاسم الذي يريده، ثم راح ينتظر الرد الذي جاءه سريعاً:

- أيوه..

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام..

- أنا مش عارف أسمعك كويس. .إيه الدوشة اللي عندك دي؟!

- أصلي أنا على سفر.. خير يا أستاذ "محمد".. فيه حاجة؟!

في ضيق وخجل من نفسه راح يقول:

- لأ.. لأ.. تيجي لنا بالسلامة، أنا حبيت أسمع صوتك لأنه وحشني من زمان، تيجي لنا بالسلامة إن شاء الله.

وجد نفسه يحدق في غيظ في تليفونه المحمول الجالس في صمت بين أصابعه تارة، وتارة أخرى ينظر في قلق إلى عقارب الساعة التي راحت تسرع وتسرع على غير العادة، ها هو يفشل في أن يطلب من صديقه ما يريد.

- وبعدين..

قالها الأستاذ " محمد " في حيرة من أمره

- آه.. إزاى فاتتني دى..

فرحًا قالها بعد أن تذكر العم "خليل" بوّاب العمارة، وسرعان ما هب واقفًا من مكانه منشيًا سعيدًا، فتح باب شقته، فتح فمه عن آخره- كما تعود عندما يريد أن ينادى عليه- وسرعان ما تذكر أن العم "خليل" قد جاءه صباح اليوم ليخبره أنه سوف يذهب اليوم لكي يفطر مع أخيه في "الزقازيق" مسقط رأسه، فإن كان يريد شيئًا قضاه له قبل أن يغادر باب العمارة، لحظتها رفع الأستاذ "محمد" رأسه من أسفل إلى أعلى، ثم راح يحركه في بطء شديد ناحية اليمين تارة وناحية الشمال تارة أخرى وهو (يكتم) فوق أنفاس تثاؤباته التي جعلت عينيه تذرفان الدموع، ثم قال كسكير:

- لأ.. شكرًا..

الابتسامة سرعان ما هربت، وحل محلها حزن دفين..

وجد نفسه يحدق وبشدة في لون وجه زوجته الخمرى، ثم راح يحدث صورتها فى ألم وصمت:

- ربنا افتكرك وارتحتى، وسبتينى لوحدى زى البيت الوقف، قعدت أقول لك نجيب حتة عيل من الملجأ نربيه ونكسب فيه ثواب ويبقى ابننا، قعدتى تقولى (أنا عايزاه منك إنته.. منك إنته وبس) صرفنا كل اللى حيلتنا عشان ييجى منى ومُتى بحسرتك، وبرضه ما جاش، فيها إيه يعنى لو كنتى سمعتى كلامى وجبناه، مش كان هيملى علينا البيت، وتسمعى منه اللى عمرك ما سمعتيه (ماما) وكان نفعنى دلوقتى فى زنقتى اللى أنا فيها دى..

صمت برهة ثم أخرجها طويلة:

- آهههههههههه

عاد وأمسك الموبايل كى يتصل بآخر ينقذه مما هو فيه، جاءه الرد سريعًا على غير العادة:

- (الهاتف الذى تحاول الاتصال به غير متاح)

- وبعدين..

قالها فى حيرة ويأس..

التفت ناحية اليمين، وراح يحدق وبشدة فى رقع الشطرنج المتراصة فى صمت فوق (الترابيزة) والتى راحت تبتسم له.

رقع الشطرنج كما هى لم تمسسها يد منذ آخر لقاء كان بينه وبين صديقه الذى خرج غاضبًا منه دون أن يكتمل الدور.

رفع رأسه حيث صورة زوجته التى تبسمت هى الأخرى فجأة من

خلف بروزاها الخشبى المتهالك وراحت تقول وكأنها تريد تذكيره بما قالته له من قبل:

- (رُبَّ أخ لم تلده أمك.. وأنت لك راجل من ضهر راجل.. نعم الأخ والصديق.. صحيح صبرت ونلت يا محمد، تعرف لو ربنا افتكرنى دلوقتى أنا مش راح أزعل.. وأزعل ليه ما دام ربنا بعت لك واحد زى ده يعوضك عن كل الناس.. أى والله.. ونعم الناس)

ومن آخر الصالة جاءته كلمات أخيه التى قالها له وهو يغادر البيت فى آخر زيارة له:

- (يا عم محمد إنته زعلان من عدم مجيئى عندك كتير، حد يكون عنده واحد زى الأستاذ "....." ويدور على أخوه)

أمسك الموبايل، وشرع فى الاتصال به، ولكنه تراجع فى اللحظات الأخيرة؛ بعد أن منعه كبرياؤه، وبعد أن تذكر أول خلاف وقع بينه وبين صديقه الصدوق، ذلك الخلاف الذى صنعه ونسجه هو؛ بسبب عصبيته واندفاعه الزائدين، وعدم قبول رأى الآخر؛ لتشدده وتشبثه الشديد برأيه.

- آه.. المعلم ناصر

قالها فى فرح وثقة، وهو يبحث عن رقم المعلم "ناصر" صاحب مقهى "الوحدة الوطنيَّة" فكثيراً ما كان ينزل من بيته قاصداً المقهى؛ عندما تلتف من حوله حبال وحدته الصماء والبكماء؛ بسبب سفر صديقه الصدوق إلى بلدته، لحظتها كان يقابله المعلم "ناصر" بقوله:

- (النص التانى مش موجود.. مش كده..؟!)

فيرفع الأستاذ " محمد " رأسه من أسفل إلى أعلى فى ألم وحزن، ومن خلفه يقول أحد رواد المقهى:

- (والله معاه حق.. حد يكون معاه النص الحلو وينزل يشوف الوشوش دى.. دا حتى يبقى حرام)

- (الشطرنج يا ولد)

يصرخ بها المعلم "ناصر" لصبيه؛ كى يأتى بها ليضعها أمام الأستاذ "محمد" الذى يقوم بدوره باللعب بروحين، روح له والأخرى لصديقه الغائب، رافضًا وبشدة أن يجلس أحد مكانه.

- آلوه.. إزيَّك يا معلم..

- إزيك إنته يا أستاذ محمد.. علِّى صوتك شويَّة.. الصوت بعيد خالص، أنا باسمعه متقطع..

وجد نفسه يصرخ في وجه التليفون بما أوتى من صوت:

- نحمده ونشكر فضله..

- أؤمرنى يا أستاذ..

- والله أنا كنت محتاج تبعتلى أنبوبة بوتوجاز دلوقتى حالًا على البيت؛ عشان أعمل عليها الإفطار.

- أنا آسف والله يا أستاذ "محمد" أنا بافطر عند الست حماتى فى البلد، كل سنة وإنت طيب، سامحنى..

همس فى حزن وألم:

- سامحنى يا أستاذ "محمد"..

تلك الكلمة التى كان دومًا يخرجها صديقه، وكأن لسانه لا

يعرف غيرها، يقولها عندما يشعر أنه قد تأخر عليَّ دقائق.. دقائق فقط، أو عندما يبدر منه شيء قد أغضبه دون قصد، حتى عندما يفوز عليه في الشطرنج يقولها أيضًا في حزن، وكأن هذا الفوز قد جاء دون قصد، يقولها حتى في سره؛ عندما يفشل في إدخال البهجة والسرور على الأستاذ " محمد " عندما يجده يجلس دون كلام.

- آه.. أنا اللي آسف.. سامحني على اللي حصل مني..

قالها في صدق وانهزاميَّة..

عاد ونظر إلى رقع الشطرنج التي علتها الأتربة، متذكراً ذلك الدور الذي لم يكتمل، وكيف له أن يكتمل بعد أن رفع صوته عليه لأول مرة في عمر صداقتهم، فما كان من الآخَر إلا أن انسحب في هدوء تام، ورغم أنه المجني عليه، إلا أنه راح يردد في حسرة وألم:

- (أنا آسف سامحني يا أستاذ "محمد".. أنا آسف سامحني يا أستاذ "محمد")

حتى وقع خطوات انسحابه لم يسمعها الأستاذ " محمد "..

عاد وأمسك بالموبايل كي يتصل به، وهو يردد في ألم:

- أنا اللي آسف.. سامحني على اللي حصل مني.. أنا اللي آسف.. سامحني على اللي حصل مني..

يأتي الرد سريعًا جاهزاً على طرف اللسان:

- الهاتف الذي تحاول الاتصال ربما يكون مغلقًا..

وقْع المفاجأة غير المتوقعة جعله يصرخ في سقف الحجرة:

- لأ.. إنتى كذابة هو عمره ما قفل الموبايل فى وشى..

أعاد المحاولة مرة ومرات، وفى كل مرة تأتيه نفس الكلمات

- وبعدين.. وبعدين..

قالها فى عصبيًة شديدة وعجز أشد، وهو يحدق فى وجه عقارب ساعة الحائط المتآكلة، وهى تشير إلى اقتراب موعد أذان المغرب

- واهى كملت.. كده تمام قوى.. قوى..

قالها فى انهزاميًة واستسلام ؛ فور انقطاع التيار الكهربائى الذى حل فجأة..

حجر الصمت الثقيل جاثم على صدره..

والظلام ضارب بجناحيه فى البيت..

صمت..

ظلام..

وحدة..

ثلاثى القتل المتوحش..

وقف فى مكانه ؛ بعد أن شعر أنه يجلس فى قبر، والقبر يضيق عليه رويداً.. رويداً..

راح يتحسس طريقه للوصول إلى تلك الشمعة الوحيدة النائمة فى (درج) من (أدراج) مطبخه، ولكنه سرعان ما تراجع وعاد إلى مكان مجلسه ؛ بعد أن وجد نفسه يتخبط فى الأشياء التى راحت تعترض طريقه.

حزينا راح يوبخ نفسه فيما بدر منه لصديقه العزيز الذى افتقده

بشدة، وكيف حدث هذا؟! ولماذا؟! ولمن؟! لأعز وأغلى الناس.. إنه الوحيد الذى يداوم على زيارته يوميًا، وكأنه دواء لمرضه يتجرعه سعيدًا فى اليوم ثلاث مرات، إنه الوحيد الذى يجلس معه لساعات طويلة حتى يزيل عنه آلام وحدته، ولا يتركه إلا عند نومه، بل ويغلق عليه باب حجرة نومه وهو يقول له مبتسمًا:

- (تصبح على ألف خير.. أحلام سعيدة يا أستاذ "محمد")

- أنا اللى آسف.. سامحنى على اللى حصل منى.. أنا اللى آسف.. سامحنى على اللى حصل منى..

عاد يكرر على نفسه فى ألم وندم كلمات الأسف والاعتذار..

- (الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..)

انطلق أذان المغرب من المسجد المجاور لبيته..

وجد يده تمتد إلى زجاجة الماء الواقفة فوق (الترابيزة) فى صمت من ليلة أمس، فتحها، وقبل أن يشرب منها، سمع من يدق بابه، همس فى حيرة:

- مين اللى جاى فى ساعة زى دى..؟!!

أجاب على نفسه بنفسه:

- هُوه ما فيش غيره "أشرف" عديلى الوحيد.. هو دايمًا كده يطب علىَّ فى رمضان من غير لا إحم ولا دستور أو حتى اتصال، هوه ومراته وكبشة العيال، معاه زاده وزواده، أحمدك يارب.. دلوقتى حافطر زبدة وقشطة وفطير وعسل نحل.. يا فرج الله.. فيه الخير والله أشرف عديلى.

سعيداً قام من مكانه يتخبط فى الأشياء فى طريقه لفتح الباب ووجهه يشع نورا وهو يقول مبتسما :

- حاضر يا وش الخير.. جايلك راكب قطار فرنساوى..

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أعز الناس..

مبتسماً..

سعيداً..

قالها الآخر القادم إليك فى شوق ولهفة كما تعودت منه دوماً، حاملًا بين يده صينيَّة كبيرة بها ثلاث أطباق.. أرز وبسلة وسلطة وملعقتان فقط، وفى اليد الأخرى شمعة أضاءت بهو المكان ؛ من بعد ظلمة..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

تقولها بصوت منكسر وحزين، بعد أن أبكاك عودة الأستاذ "حنا" إليك دون أن تذرف دمعة واحدة..

فى سعادة غامرة، راح يضمك إليه وبشدة، وهو يقول والدموع تغسل وجهه:

- أنا آسف على التأخير سامحنى يا أستاذ "محمد"..

- أنا اللى آسف.. سامحنى على اللى حصل منى.. وأوعدك إن اللى حصل عمره ما حيحصل تانى خالص.

رد عليه الأستاذ " حنا " وهو يمسح دموعه:

- ما اتخلقشى لسه اللى يفرق ما بينا يا أستاذ "محمد"

أمسك الأستاذ "حنا" بالملعقة، مسحها جيداً قبل أن يعطيها

لصديقه الأستاذ "محمد" وهو يقول :

- ياللا بسملة . .

مبتسماً تناولها الأستاذ "محمد" وهو يقول للأستاذ "حنا" :

- مين قال لك إنى ما عملتش فطار النهاردة . . ؟ ! !

- مافيش حد . .

- طب إنته عرفت منين . . ؟ ! !

- إحساسى بيك طول الوقت ما انقطعش ، إنت ناسى اللى بيفرقنا عن بعض ساعات النوم ، واللى بيفصل ما بنا عرض الحيطة دى . .

فى تناغم موسيقى بديع راحت الملعقتان تتحركان داخل الأطباق ، لتعزفا معًا لحنًا وطنيًّا روعة فى الجمال والأداء ، على ضوء الشمعة التى راحت تتراقص فرحًا على نغمات صوت ضحكاتهما .

عفواً..!!

تجلس أمام التلفاز كما اعتدت كل يوم فور خروجك على المعاش مبكراً..

فجأة..

تأتيك فقرة إعلانيَّة لتقطع عنك أحداث المسلسل..

رحت تنجذب بشدة نحو ذلك الإعلان الذى يوضح ويبرهن ويؤكد قوة هذا الدهان الجديد لعلاج آلام العمود الفقرى والمفاصل وخشونة الركبة و.... و.... و.... و.... و.....

فجأة.. تجد نفسك تصرخ كطفل وأنت تشير بإصبعك فى تمنٍّ نحو ذاك الإعلان:

- عاوز من ده..

ترميك زوجتك- الجالسة بجوارك- بنظرة ساخرة، دون أن تتفوه بكلمة واحدة..

- عاوز من ده..

تضحك زوجتك؛ عندما تشاهدك وأنت تشير نحو تلك العلبة القابعة فى يد المعلن، والتى تعيد لون شعرك إلى طبيعته الأصليَّة- على حد قول المعلن- فقط بعد ثلاث دهانات متتالية.

(هذا الإسبريه أكثر أمنًا وأمانًا وليس له أى أعراض جانبيه يجعلك أكثر رجولة.. أكثر حيويَّة.. إنه صنع من أجل أن يعيد لك شبابك، يجعل منك أسداً و.....)

- عاوز من ده.. عاوز من ده.. عاوز من ده..

رحت ترددها فى جنون، وفى عينيك دموعٌ تود الفرار، وأنت تشير بإصبعك المرتعش نحو المنتج الذى قال عنه المعلن وما زال يقول ويقول ويقول..

ترميك زوجتك من خلفك بكلماتها وهى تتمايل كراقصة بعد أن توقفت ضحكاتها التى جعلتك تنفض فى مكانك:

- وعايزنا نرجع زى زمان قول للزمان ارجع يا زمان.

يشتعل بركان غضبك..

رحت تضرب الأرقام العشرة الموجودة على شاشة التلفاز حتى يأتيك المنتج (اتصل بنا نصلك فورا) على حد قول المعلن، يأتيك الرد سريعًا بصوت أنثوى:

- عفواً لقد نفد رصيدكم.

فجأة..

تسقط من عينيك دمعتان لتغرقا المكان.

مـوت..!!

الثوب الجديد..!!

عِنْدَما تَرى عيونُه صديقَه محمداً وهو يرتدى قميصاً، وبنطلوناً جديدَيْنِ كلّ فترةٍ.. تُضيءُ شمعةٌ حُلْمه داخلَه مرَّةً أخرى.. يُسْرِعُ إلى أبيه يُلحُّ عليْه فى طلبه - مِثْلَ المرَّاتِ السابقات- أنْ يأتى له بقميصٍ وبنطلونٍ وجزمةٍ، دائمًا كان ردُّه جاهزاً على طَرْفِ لِسَانه:

- اللى يبص لفوق يتعب.. على قد لحافك مد رجليك..

- يتألمّ أشدَّ الألمِ عندَ سماعه هذه الكلماتِ، لا يَجدُ مهرباً غيرَ الوقوف فى شُرفةِ بَلكونَتِهمْ، يرفعُ رأسَه إلى أعلى يتأمل ثوبَ صديقِه المعلَّق على حِبالِ الغسيل فيتألم أشدَّ الألمِ....

***

قادَتْه قَدماهُ إلى الدور الثالث حيث شقة صديقه، ظل يضرب الجرس كثيراً، خرجت الجارة لتخبره أن صديقه ذهب وباقى أفراد

الأسرة للتنزه يوما خارج العاصمة....، نظر أسفل منه وجد حذاء صديقه قد نسوه أمام باب الشقة، بعد أن اطمأن لدخول الجارة شقتها... نظر فى كل الاتجاهات...

التقطه.. خبَّأه تحت إبطه ونزل مسرعًا، إلى شقته.. دخل، راح يفكر أين يخفيه، وضعه تحت السرير، جلس يحدث نفسه:

- آدى الجزمة فاضل القميص والبنطلون...

صورة ملابس صديقه المعلقة على حبال الغسيل ظهرت أمامه فجأة.

ذهب إلى هناك كى يتصيَّد أفضل قميص وبنطلون وهو يحدث نفسه من حين إلى آخر:

- آخدهمْ علشان، الصورة، وأرجعهم تانى لما ييجوا وأقول أنهم سقطوا عندنا فى البلكونة... كذبه بيضة مش تضر...

***

أمسك بحصالته الصاج وراح يحطمها، تناثر ما بداخلها فوق سريره..

جلس على حافته- بعدما وضعها داخل كفيه- وراح يتذكر عندما ذهب للمصور منذ شهور طويلة ليسأله عن ثمن صورة واحدة، بعد أن انتهى من عد العملات الفضيَّة همس:

- بالضبط

***

فى صباح اليوم التالى أسرع إلى مكان المصور وضع ما ادخره فى

كفيّ الرجل وطلب منه أن يلتقط له صورة واحدة كاملة وهو جالس واضعًا رجلًا فوق الأخرى... وقف أمام المرأة، يمشط شعره ويهندم ملابسه وهو غير مصدق نفسه... حلمه الطويل أصبح اليوم حقيقة...

صورة بالطاقم المحبب إليه... جلس فوق الكرسى، بعد أن اطمأن المصور لشكل الصورة أمسك بالكاميرا لالتقاطها، طلب المصور منه أن يبتسم... فى لحظة خروج الابتسامة سمع صوت أم صديقه وهى تنادى عليه من الخارج:

– هو فين حرامى الهدوم..؟!

تسقط من عينيه دمعة.

الحلم الساكن بداخلها..!!

الحمار يحفر بأقدامه الأرض..

يجر من خلفه عربة المعلم السيد (الكارو) ومن فوقها كان يجلس المعلم السيد متربعًا، بجسده الثقيل، وكرشه الكبير.. - المنفوخ عن آخره - يتأرجح أمامه كلما اهتزت العربة من جراء (مطب) ومن حوله بضاعته من الروبابكيا، حلل قديمة، ألومونيا قديمة.. يمسك بين يديه طبلة، ينقر عليها بأصابعه، تلك النقرات تحدث ضجيجًا وسط البيوت..

يطلق صيحاته المتتالية التى اعتاد عليها نساء الحارة يوم الجمعة من كل أسبوع..

- روبابكيا.. حلل قديمة.. ألومونيا قديمة.. شبشب قديم.. جزمه قديمة.. أى حاجة قديمة للبيع..

تن . . تتنتن . . تن . .

سريعًا تدخل العربة (الكارو) فى جوف الحارة مع قدوم أول زبونة تأتى إليه من أول الحارة، تحمل بين يديها حلة قديمة تجده يقفز من فوق العربة، يتأرجح كرشه أمامه عدة مرات، وسرعان ما يهدأ . .يخرج من الجوال المعلق أسفل العربة البرسيم، يضع بعضًا منه أمام الحمار المنهك من الجوع والتعب . .المعلم (السيد) يقوم بدوره . . يمسك الحلة القديمة، يقلبها بين يديه جيدًا، المرأة الواقفة أمامه راحت تقول فى حدة شديدة :

- افصل تمنها يا عم السيد . .

رد عليها والحلة ما زالت فى يده يقلبها على جوانبها :

- اتنين جنيه والعوض على الله . .

المرأة ضربت صدرها بيدها، توقف على أثرها الحمار عن تناول طعام البرسيم، ولكنه عاود الطعام بعد أن نظر إليها .

- يا لهوى . . يا راجل يا مفترى حرام عليك . .

لم يتفوه المعلم (السيد) بكلمة واحدة، وعندما لم تصل المرأة معه إلى حل يرضيها . . قالت له وعيناها معلقتان على السماء تدعو عليه فى سرها :

- هات . .

فى همس شديد راحت تقول :

- حار ونار فى جتتك . .

دس أصابعه التى راحت تسبح داخل جيب جلبابه

(الغويط) . .أخرج كيساً من القماش ممتلئًا عن آخره بالفلوس . .

شعر بأنفاس المرأة الملتهبة المتتالية وعينيها اللتين تكادان أن تخرجا من مكانهما من هول ما تراه من مال . .

تنحّى جانبًا ، سحب جنيهين . . أخذتهما المرأة ، وعادت من حيث أتت وهي تتمتم بكلمات لم يفهم منها المعلم (السيد) شيئًا . .عاد وأمسك بالطبلة مرة أخرى بين يديه . . راح ينقر عليها نقراته المميزة المصحوبة بكلماته . . تجمع على أثرها بعض من نساء الحارة وأطفالهن . . يحملن فوق رؤوسهن ، أو بين أيديهن ألومونيا قديمة ، أو أحذية ، أو أواني قديمة ، التففن من حوله حتى أصبح المعلم (السيد) وسط دائرة محكمة الإغلاق يبعن ويقبضن الثمن ، أو يستبدلن القديم بجديد ويدفعن الثمن . . الحمار غير عابئ بما يدور من حوله ، يأكل البرسيم في سرعة متناهية ، وقفت الطفلة (مريم) ابنة الست أم أحمد تشاهد أطفال الحارة وهم يمسكون بجلابيب أمهاتهم ، يطلبون بإلحاح شديد من أمهاتهم أن يشترين لهم (بلالين) . . ووضع (البلالين) فوق العربة ، لمحة ذكاء من المعلم (السيد)عندما علم بأن الأطفال يأتون خلف أمهاتهم راح يفكر كثيراً كيف يستفيد منهم ، فأحضر معه بالونات مختلفة الألوان والأحجام ، وقد علق بعضها فوق عربته الكارو ، وسرعان ما نجحت حيلته . . رويداً . . رويداً . .يتفرقن نساء الحارة من أمام المعلم (السيد) ابتلعتهن الحارة والبيوت الطينيّة المتآكلة ، ولم يتبق غيره ، وعربته وحماره الغارق في التهام عيدان البرسيم . .

رويداً.. رويداً.. راحت (مريم) تخطو خطوات بطيئة متثاقلة حتى وقفت أمام العربة راحت تنظر فى شوق ولهفة إلى البالونات المعلقة فوق العربة بألوانها المتعددة الجذابة دون أن تتفوه بكلمة واحدة، نظر إليها المعلم (السيد) نظرة تفحصية ثم قال:

- عاوزه إيه؟

قالت وعيناها ما زالتا علي البالونات:

- نفيخه ألعب بيها زى العيال..

فى حدة قال:

- معاكى فلوس..؟

تسقط عيناها مكان وقوفها.. عاد وقال فى قوة:

- معاكى حلة قديمة..؟

تنظر إلى ثوبها الرث المتهرئ.. عاد وقال فى سخرية:

- أو حتى شبشب قديم..؟

نظرت بحزن شديد إلى قدميها الحافيتين.. رماها بآخر كلماته:

- طب أى حاجة قديمة..؟

- (.....................)

- بارك الله فيما رزق..

تمتم المعلم (السيد) بكلمات الحمد وهو يلملم البرسيم القابع أمام حماره الذى راح ينظر إليه فى غضب شديد..

وضع البرسيم داخل الجوال، قفز قفزة عالية فوق العربة، نظر إلى (مريم) ثم قال:

- روحى يا شاطره والمرَّه الجايه.. هاتى أى حاجة قديمة وأنا أديكى نفيخه كبيرة أحسن من بتاعة العيال..

الطفلة ما زالت تنظر فى حسرة إلى البلالين.. مبتسماً عاد وقال المعلم السيد:

- النفافيخ كتير مش هتخلص..

أمسك العصا فى يده، وراح يضرب حماره أسفل بطنه..

- حا يا حمار.. روبابكيا..

سقطت من عين (مريم) دمعتان.. راحت تنظر إلى العربة حتى ابتلعها الشارع الطويل..

رويداً.. رويداً صوت المعلم (السيد) راح يختفى..

***

- فوق

-- هاه

- هاتى

- وأنا كمان..

- هاء.. هاء.. هاء

أصوات الأطفال تخرجها من لجة أفكارها.. تلتفت إليهم.. تقترب منهم.. تدخل فى وسطهم كى تصبح منهم وحتى يأتى الدور عليها وتضرب البالونة بيديها مثلما يفعلون.. فجأة توقفوا عن اللعب، وتوقفت معهم ضحكاتهم..

نظرت إليهم.. نظروا إليها فى تعالٍ.. يرفضون بشدة أن تلعب

معهم.. راحت تسحب قدميها فى تثاقل شديد فى طريقها للعودة إلى دارها تركتهم يلعبون، ومن حين إلى آخر تلتفت إليهم وإلى البالونة التى تطير فى الهواء..

وصلت إلى البيت، نظرت إلى أمها، مستسلمة انزوت فى ركن البيت وراحت تبكى فى حرقة شديدة، صوت بكائها سمعته أمها.. التفتت إليها ولم تهتم بها.. فهى تعرف جيداً سر بكاء طفلتها المتكرر كلما سمعت صوت المعلم (السيد)، ولكنها لم تستطع فعل شىء غير أنها راحت تحدث نفسها فى حسرة:

- العين بصيرة.. والأيد قصيرة.. آدى الله، وآدى حكمته.

***

راحت تتجرع صمت الانتظار الموجع.. ترتشف من الكأس صباح مساء.. تعد أيام الأسبوع السبعة على أصابعها الصغيرة.. كم يوماً مضى، وكم من الأيام باق..؟ وكلما مضى يوم تنظر إلى الآخر فى شوق.. تمد يدها مساء كل ليلة، توقظ النهار من ركود نومه، تخلصه من الليل الطويل.. وكلما سمعت أذناها صيحات الأطفال وهم يلعبون بالبالونات تتألم أشد الألم.. حتى جاء ميعاده كما عودهم..

- روبابكيا..

تن.. تتنتن.. تن..

هزتها الفرحة هزاً.. جذبتها ألوان البالونات المعلقة فوق العربة.. جُنَّ جنونها.. استيقظ حلمها النائم منذ أيام..

عاد مرة أخرى يطفو فوق سطح الحياة.. راح يرفرف بجناحيه.. ارتوى وجهها الذابل بالفرحة.. وغمرت الابتسامة شفتيها.. الأمهات يشترين لأطفالهن البالونات.. والأطفال يفرحون ويطلقون ضحكاتهم.. تهرب الابتسامة.. تغمض عينيها.. وتصم أذنيها..

تن.. تتنتن.. تن..

- روبابكيا..

المعلم (السيد) يتأهب للسير، بعد أن لملم البرسيم المتبقى أمام حماره، الحلم القابع بداخلها يختنق.. يتوجع.. يصرخ ألمًا.. أمها ليست بالبيت.. طارت من فوق الأرض سيرًا على قدميها حتى وصلت إليها.. انتشلتها بعد أن راحت عيناها تجوبان المكان.. أسرعت إليه.. أمسك المعلم (السيد) الحلة القديمة والوحيدة داخل بيتها وراح يقلبها بين يديه ثم قال:

- عاوزه فيها إيه؟!

قالت مبتسمة:

- عاوزة نفيخة، وتكون أكبر من نفافيخ العيال..

مبتسمًا راح يقول:

- من عينيه الاتنين

راحت تنظر فى سعادة غامرة.. إنها غير مصدقة.. حلمها الصغير يجلس متربعًا بين يديها.. راحت تزيد من حجمه، تنفخ فيه، تملؤه بهواء الأمل الساكن بداخلها منذ أيام.. الهواء الخارج منها بقوة يزيد من حجم الحلم.. وكلما ازداد الحلم، ازداد نفخها..

وكلما سمعت ضحكات الأطفال وهم يلعبونِ بالبالونات زاد توترها.. وفجأة

..انفجر الحلم..

وتناثرت أشلاؤه أمامها.. ضحكات الأطفال راحت تلتف من حولها لتخنقها..

رويداً..

رويداً..

يبتعد صوت المعلم (السيد)..

- روبابكيا

تن.. تتنتن..تن..

عضة كلب..!!

وقف وليد أمام والده وراح يقول :

- المصروف يابا

دون أن يلتفت إليه قال في ضيق :

- خد من أمك

التفت إلى أمه :

- المصروف ياماً..

صرخت في وجهه.. تراجع للوراء في خوف وهلع :

- مصروف إيه يا واد؟ ما أنت واخد سندوتشاتك معاك.. عاوز فلوس ليه.. !

رد في حزن :

- يا امه كل واحد من العيال فى المدرسة بيا خد مصروف يشترى بيه اللى نفسه فيه.

- بس يا واد عيش عيشة أهلك.. مالكش دعوة بحد..

قال مصروف قال..

راح وليد.. يضرب الأرض برجليه.. يرمي شنطته على الأرض.. يشد شعر رأسه.. يملأ المكان صراخًا وبكاء..

نظر إلي والديه.. ترميه أمه بكلماتها:

- اخبط دماغك فى الحيطه... مفيش فلوس..

استسلم وليد لقدره.. جفف دموعه.. فى غيظ حمل شنطته تاركًا البيت، قاصداً مدرسته..

***

في الشارع تتراءى أمام عينيه صورة عيال المدرسة وهم يصرون على إغاظته بحركاتهم اليوميَّة (أشرف) هو يضع العسليَّة فى فمه ويظل يخرج لسانه من وقت إلى آخر وهو يردد فى سعادة بالغة: (طعمها جميل قوى)

و (مدحت) ابن صفيَّة يأكل اللب العباد ويقذف فى وجهه القشر..نفخ فى وجه الشارع غضباً

- أوووووف

راح يضرب حصوات الشارع بقدميه...

هَوْ.. هَوْ.. هَوْ.. هَوْ...

- إيه الكلاب دى كلها؟!.

قالها وليد وهو يفيق من غفلته على صوت الكلاب..

فبدون أن يشعر قد أصابت الحصوات الكلاب وأغضبتهم دفعة قدميه إلى الأمام.. فراح يجرى.. أسرعت خلفه تسبقهم (هوهواتهم) التى أرعبته، ومن حين إلى آخر يلتفت خلفه.. ظل يجوب الشوارع وهى خلفه.. توقفت الكلاب جميعًا إلا كلبًا أسود نحيفًا.. ما زال يصر على أن يلاحقه.. كلما اقترب منه ازداد صراخ وليد.. ولم يتركه إلا بعد أن عضه فى فخذه الأيمن..

***

عاد وليد إلى بيته يصرخ لأمه من شدة الألم.. وما إن رأته أمه حتى هبت واقفة تضرب خديها بكلتا يديها، صرخت فى حسرة وألم:

– يا لـ لـ هـ هـ ووى

هب الأب من نومه على صراخ زوجته وهو يقول:

– فيه إيه..؟

رد عليه وليد ودموعه تغسل ملابسه:

– الكلب.. الكلب الأسود عضنى يابا..

حمله أبوه فوق كتفه، وأسرع به إلى الوحدة الصحيَّة..

قال الطبيب:

– ده محتاج ياخد واحد وعشرين حقنة... كل يوم حقنة..

صرخ وليد عندما اقترب منه أبوه فى محاولة منه كى (يخلع) عنه بنطاله، وقبل أن يخرجوا حذر الطبيب الأب من عدم التأخير فى أى يوم..؟

في صباح اليوم التالى لأخذ الحقنة رفض وليد بشدة أن يذهب مع أبيه، ملأ البيت بكاء وهو يضع أصابعه مكان أخذ الحقنة.. لم يهدأ إلا عندما أخذه الأب من يده على دكان جَارتهم الحاجة (أم إبراهيم) ثم قال فى ضيق شديد:

- شاور على أى حاجة حلوة يا سيدى.

الكلمات راحت تنطلق من فمه مسرعة دون توقف:

- عايز عسليَّة..ولب عباد و........و........و.......

امتلأت جيوبه عن آخرها بالحلوى.. لم يشعر بأى ألم من جراء أخذ الحقنه.. فقد كان مشغولا بما داخل جيوبه من الحلوى.. ابتسم وليد، سرح بخياله وتمنَّى لو أن الأرض تنشق وتخرج من جوفها الواد (أشرف) ومعه الواد (مِدحت) حتى يغيظهما، ويجعلهما يتحسران على ما معه من حلوى.

***

يضرب الأرض برجليه..... يرمى شنطته على الأرض..... يشد شعر رأسه..... يملأ المكان صراخًا وبكاء....

ترميه أمه بكلماتها:

- اخبط دماغك فى الحيطه.. مفيش فلوس...

لقد مرت الأيام سريعة، وانتهى أخذ الحقن.. وأصبحت جيوبه خاوية من الحلوى.. تراقصت أمامه فكرة جهنميَّة حتى يعيد الأيام الجميلة التى مضت.. وتمتلئ جيوبه مرة أخرى همس:

- عضة كلب.. أيوه عضة كلب تانية.. والكلاب كتيرة فى الشوارع..

***

استسلم لهذه الفكرة، خرج من البيت لأول مرة سعيداً..راح يجوب الشوارع بحثًا عن أى كلب.. تعجب سأل نفسه:

- فين الكلاب...؟ ممكن يكونوا نايمين وماصحيوش لدلوقتى...أدور فى شوارع تانية...

ظل يجوب الشوارع.. توقف فى ضيق ثم قال: - فين الكلاب..؟

تبسم ثم قال: آه أنا نسيت مكان مهم قوى... الخرابة... أيوه الخرابة...

***

آدى الخرابة...وآدى الكلاب اللى بتدور على أكل...وأنا الأكل..أنا الأكل...

أسرع نحو الكلاب دون خوف أو فزع..الكلاب تهرب من أمامه خائفة.. أمسك بالحصوات وراح يضربها الواحد تلو الأخرى حتى يثير غضبها ولكن دون جدوى... اقترب من أحدها أمسك ذيله وراح يشده بقوة.. الكلب لم يعره اهتمامًا جرى وراء ثان حتى أمسك به.. راح يكيل له الضربات فى بطنه دون فائدة أمسك بثالث.. فتح فمه عن آخره.. راح يستعطفه كى يعضه فى أى مكان من جسده.. تَفلّت الكلب من بين يديه وتركه وذهب ظل ينظر إليها فى حسرة وألم حمل الشنطة وهو فى عجب شديد مما يحدث.

جدتى..!!

بشهادة الجميع (أنا لميض) وطويل اللسان.. ولكن لماضتى، وطول لسانى لم يضراً أحداً، بل على العكس هناك بعض جيراننا يقولون:

- (لميض وطويل اللسان صحيح بس دمه خفيف)..

ثم إن هناك من الضيوف ممن يقومون بزيارتنا من حين إلى آخر.. وكانوا إذا جلسوا وقتاً طويلاً ولم يشاهدونى أتحرك أمامهم على الفور يسألون عنى..

- (هو فين اللميض طويل اللسان..؟)

على الفور أخرج إليهم وأنا أخطو خطوات الواثق من نفسه، حتى أصبح أمامهم، أبتسم فى وجوههم وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة أجدهم يضحكون بشدة.. أقرأ سطور الغضب الشديد على وجه

أمي.. أنا أعرف جيداً ماذا سيحدث لي من طول لساني، فهي لم تستطع أن تفعل معي شيئًا بعد أن ضربتني كثيراً ولم تفلح معي ضرباتها، ثم إنها قد أطلقتها صريحة بعد أن رفعت راية فشلها:

(أنا غلبت فيك)

أمي تنتظر حتى يخرج الضيوف.. ويأتي أبي من عمله.. وتأمره على الفور أن يمسك بالعصى ليضربني، ولأن أبي لن يستطيع أن يرفض لأمي مطلبًا.. على الفور أجده يتحرك في آليَّة شديدة.. يأتي بالعصا من خلف الباب، وينزل بها على جسدي وهو يردد في غضب شديد:

- أنا لازم أقطعلك لسانك من لغاليغه.. علشان تبطل لماضه..

خد يا ابن الـ (...............)

***

سميَّة أختي هي الوحيدة داخل البيت التي تحبني وتحب لماضتي.. ودائمًا تبكي من أجلي عندما تراني أصرخ من شدة الضرب..

- معلش.. كفاية دموع

قالتها أختي في محاولة منها أن أكفَّ عن البكاء.. في آخر مرة جلست معها، نصحتني بأن أكفَّ عن هذه اللماضة التي حتمًا سوف تقصف عمري.. أفهمتها بأن هذه طبيعة داخلي، وأنني حاولت كثيراً أن أهرب منها أو أتخلى عنها ولكني لم أستطع، فقد أصبحت منها، وأصبحت مني.. تلازمني وألازمها.. لم تستطع أختي أن ترد عليَّ.. ساد الصمت بيننا طويلًا.. فجأة ظهرت أمامي فكرة قد أعجبتني جيداً..

أشرت عليها بأن يتم بيننا اتفاق، قلت لها عندما ترين أبى وهو ينزل علىّ ضرباً بالعصا لا تبكى بل كل ما عليكِ أن تفعليه أن تفتحى لى (ترباس) الباب لأنه عالٍ علىَّ حتى أستطيع الهرب، والنزول إلى شقة جدتى حتى أحتمى بها فهى الوحيدة التى تقدر على حمايتى من بطش أبى بى..

***

- أنت جننتنى

ضربات- أبى السريعة المتتالية- تجعلنى كالبهلوان، وجدتنى أتقافز من شدة الضرب.. أختى سميَّة تحاول أن تفتح (الترباس) ولكن جُبنها من صوت العصا المرتفع يجعلها تتراجع.. الضربات تزداد.. وصراخى يزداد.. أخيراً تتشجع سميَّة وتفتح (الترباس) ومن بعده الباب.. أهرب من بين يديه.. أسرع خارج البيت..أقفز درجات السلم قاصداً شقة جدتى.. رحت أضرب بابها بكلتا يدى.. تفتح جدتى.. أدخل فى حضنها.. تطوقنى بيديها الحنونتين.. تهدأ أنفاس أبى المتلاحقة - من جراء الجرى ورائى - جدتى تنظر إليه فى غضب وهو يقف مستندا بكتفيه على بابها.. ينظر إليها فى توتر شديد.. جدتى تنظر إلى العصا الغليظة القابعة خلف بابها تارة وتارة أخرى تنظر إلى أبى.. يهرب أبى من نظراتها، راح يعبث بأصابعه داخل فروة رأسه..

شعر بالخجل.. تراجع خطوات إلى الوراء حتى اختفى فجأة.. بكائى الشديد لم ينقطع لحظة واحدة.. فما زالت آثار ضربات أبى فوق جسدى تؤلمنى بشدة..

تغلق جدتي الباب.. تجلسني أمامها، وبطن يدها راحت توقف الدمعات.. تدس يدها داخل جيب جلبابها، تخرج كيسا من القماش، تفتحه، تخرج منه (بريزة) فضيَّة، تمسك بيدى اليمنى، ثنت أصابعي الخمس فوق كفي، وراحت تفرد الإصبع بعد الآخر وهي تقول:

- آدى البيضة.. وآدى اللى شواها.. وآدى اللى حمرها.. وآدى اللى كلها.. وآدى اللى قال هات حتة أحسن أقول لصاحبها..

وراحت تغرز أصابعها- القصيرة الرقيقة- في جانبي جسدى، حتى أنني كدت أموت من كثرة الضحك، دست جدتي (البريزة) في كفي وهي تقول:

- ما تخفش أبداً يا حبيبى، طول ما أنا عايشه أبوك مش حايقدر يضربك، هوًا فاكر نفسه كبر، العصاية أهيَّة موجودة تفكره..

***

لسانى الطويل بداخل فمي يتقافز يريد أن ينطلق.. ولكننى أغلق عليه بشدة.. الضيوف يسألون عنى أمي..

وأمي تدعى أنني خارج البيت.. لسانى الطويل بداخلى يزداد طولًا فوق طوله.. انطلق من داخل فمى حتى سحبني إليهم، وعندما رأونى انخرطوا في الضحك.. أضحكتهم كثيراً، وأبكتنى نظرات أمي المتلاحقة لى..

***

دق.. دق.. دق.. دق

أنظر إلى ساعة الحائط.. هذا موعد رجوعه.. يعود أبى من عمله تسرع إليه أمى.. غاضبة تأمره بضربى..

على الفور يمسك العصا القابعة خلف الباب والتى وضعت خصيصاً من أجلى.. بكائى الشديد يغرق المكان..

أختى سميّة تتشجع وتفتح (ترباس) الباب..أهرب من شقتنا إلى شقة جدتى.. رحت أضرب بابها بكلتا يدى وعيناى على السلم، خشيت أن يلحق بى أبى.. باب جدتى لم يفتح.. عاودت ضربه بيدى، وقدمى، وأنا أصرخ فيه:

- أفتحى يا جدتى

أمسكتنى يد أبى الطويلة.. أطبقت يداه على رقبتى حتى أصبحت بين يديه كالفأر الذى وقع فى المصيدة..

سحبنى بيد، وانهال علىّ ضرباً بالأخرى.. صعد بى درجات السلم.. ضرباته المبرحة لم تمنعنى من النظر إلى باب جدتى من حين إلى آخر لعله يفتح.. رغم علمى الشديد بموتها..

لم يعد هناك مكان..!!

أقف خلف شباك الحجرة.. أنظر من بين فتحاته.. أنتظر خروج أبيه للعمل.. ها هو يخرج ويغلق الباب من خلفه.

خرج الأب ولم يتبق غير ابنه الوحيد.. سوف يخرج.. نعم من المؤكد أنه سوف يخرج..أسمع تحذيرات أمه اليوميّة قبل خروجه إلى الشارع:

- ما تتأخرش يا أحمد.

وهو فى طريقه إلى الشارع يرد عليها:

- حاضر يا ماما.

ها هو يخرج.. أسرع بترك المكان.. أخطو خطوات نحو بابنا.. أفتحه فى حذر شديد حتى لا تسمع صوته أمى، أتركه مواربًا بعض الشيء لحين عودتى.. الواد (أحمد) دلوعة أمه وأبيه يتقافز..

يرقص فرحًا وهو فى طريقه إلى عم (فتحى) البقال، يقبض بأصابعه على القروش الفضيّة التي أعطاها له أبوه.. أنتظر بالقرب منه دون أن يراني..

أترقبه وهو يدس القروش في يد عم فتحى- الذى ما إن يره إلا ويتهلل وجهه بالابتسامة- على الفور تمتد يد عم (فتحى) إلى الرف بعد أن أشار إليه (أحمد) على ما يريد.. يعاودنى جنونى اليومى عندما أرى الشيكولاته فى كفه.. لسانى داخل فمى يتراقص.. أفرك أصابعى.. أنفخ فى بطن يدى.. أسرع خلفه دون أن يشعر بى، وفى اللحظة المناسبة أنقض على يده أنتزع من يده قطعة الشيكولاته، ولأنه دلوعة أمه كما يسميه عيال الحارة يستسلم على الفور دون مقاومة منه.. وقبل أن أعود إلى بيتى تكون قد استقرت داخل معدتى.. أدخل.. فى هدوء أغلق الباب خلفى، ثم أعاود وقوفى خلف شباك الحجرة أترقب ماذا يحدث من بين فتحاته..

رويداً..

رويداً..

يهدأ البركان الساكن بداخلى.. أسمع (أحمد) وهو يبكى لأمه يشكونى إليها.. لحظات قليلة بعدها تكون أمام بيتنا تنادى على أمى.. تخرج أمى فى عجالة.. لقد تغير لون وجهها بعدما عرفت من ينادى.. راحت تشكونى إلى أمى.. وطفلها بين يديها يبكى، قالت فى غضب شديد:

- وبعدين فى ابنك اللى مش راح يجيبها لبر.. كل مرة يسرق الشيكولاته من الواد..

فى ضعف واستكانة ترد أمى:

- سامحينى يا اختى.. ما انتى عارفه البير وغطاه.. وعارفه كمان إن الواد محروم من حنان الأب، ومن كل حاجة حلوة.. ولولا عطفك علينا.. وخدمتى عندك عشان أوكله كنا متنا من الجوع.

أمى لا تدرى أنى لن أموت جوعًا.. ولكنى أموت ألمًا عندما أراها وهى تنحنى لتمسح لها البلاط.. وطفلها الدلوعة يركب ظهرها ويظل يضربها كما يضرب الحمار.. ترد أم (أحمد) على أمى فى كبرياء:

- والله العظيم تلاتة ما أنا متحركة خطوة واحدة من هنا قبل ما تجيبى ابنك وتلسعيه بالنار على إيديه عشان يحرم يسرق الواد تانى.. تدخل أمى الحجرة، تقترب نحوى. .أعرف أن ليس باستطاعتها أن ترفض طلبها وإلا سوف تمنعها من الحضور إلى بيتها لخدمتها.. أدخل أصابعى العشرة فى فمى ألحس آخر ما علق فى أصابعى من بقايا الشيكولاته.. غاضبة تنقض على أمى.. تمسك بى أصبح بين يديها كالفأر الذى وقع فى شر أعماله.. تسحبنى من يدى حتى تصل بى إلى الست أم أحمد.. تركتنى أقف أمامها للحظات ثم عادت وفى يدها إبرة الوابور وهى تشتعل احمرارًا.. لا يهمنى.. أحمد دلوعة أمه عندما رآنى أغمض له عينا وأفتح الأخرى- كى أخيفه- توارى خلف جلباب أمه. .فى كبرياء تخرجه أمه وهى تقول:

- ما تخافش يا واد.. أقف عشان تشوفه وهو بيتحرق..

رحت أصرخ.. وأصرخ.. وأنا بين يدى أمي من شدة الألم.. الست أم (أحمد) راحت تردد في سعادة:

- أحسن عشان تبطل تتعرض للواد وتاكل الشيكولاته منه..

رغم الآلام التى فى يدى من جراء اللسعة، لكننى ما زلت أغمض له عينًا وأفتح الأخرى..ولكنه هذه المرة ظل يضحك عليَّ بشدة..

فى المرة الـ(............)

ما زال (أحمد) دلوعة أمه وأبيه يتعمد الركوب فوق ظهر أمى وهى تمسح بلاط الصالة.. انتظرت أباه حتى خرج واستمع هو إلى نصائح أمه.. ورأيت إشارته إلى عم (فتحى) البقال على نوع الشيكولاته التى يحبها.. ظل يرقص فرحًا وهو عائد إلى بيته.. انقضضت على يده بكل ما أوتيت من قوة وانتزعت الشيكولاته من بين أصابعه.. وقبل أن أدخل بها إلى البيت وجدت أمه تقف أمام بيتنا فى انتظارى وقد شمرت عن ساعديها.. أمي تقف بجوارها وفى يدها إبرة الوابور تشتعل احمراراً.. وجدتنى دون أن أدرى أضع قطعة الشيكولاته داخل فمى الواسع دون أن أفك غلافها البلاستك. .أمسكتنى أمي بين يديها وراحت تبحث طويلًا لا أدرى عمًا تبحث.. انتزعتنى أم (أحمد) من بين أصابع أمى راحت تجردنى من ملابسى لعلها تجد مكانًا جديداً لم تلسعنى فيه.. حتى يتسنى لها أن تغرز إبرة الوابور فيه.

موت.. !!

سقط القلم من يده متعبًا ؛ من جراء جريه المتواصل فوق أوراقه البيضاء المسطرة بأحرف كلماته الأخيرة من قصته القصيرة جداً (موت المؤلف) . . ظل يجفف عرقه المتساقط منذ أن بدأ القلم يجرى فوق الورق . .

مبتسمًا . . أرجع رأسه إلى الوراء سعيداً غاية السعادة بانتهاء قصته

لحظات قليلة وراح يحدِّق فى سقف حجرته وهو يهمس فى صمت وسعادة :

– الحمد لله . . الآن قد أتممت قصتى القصيرة . .

فجأة . .

سقط أمامه رأسه المثقل بالكثير والكثير من الأفكار التى لم

تكتب بعد، ولهذا كثيراً ما كان يحدث ملك الموت المتربص به دومًا، ويرجوه مبتسماً:

(أرجوك يا صديقى، أعلم بأنه ليس لديك أصدقاء أو أحباب، ولكن اجعلنى صديقك لفترة.. لفترة قصيرة، وبحكم صداقتنا حديثة المولد، أرجوك تمهل قليلًا.. أمهلنى بعض الوقت الكافى.. فما زال لدى الكثير والكثير من القصص القصيرة طازجة الأفكار والتناول لم أكتبها بعد، ولم يتطرق إليها أحد.. فهل توافقنى صديقى..؟!! أجبنى)

دومًا كانت الإجابة عن سؤاله.. ابتسامة على شفاه ملك الموت.. ثم اختفاءه السريع المفاجئ دون أن يروى ظمأ سؤاله.

شعرت الزوجة بهدوء غريب وغير معتاد، أسرعت إلى صومعة الأديب الذى كتب على باب حجرته عبارة (حجرة الشفاء من كل داء) دقت الباب دقات خفيفة، عاودت دق الباب بشدة، كادت أن تصرخ فرحة من هول ما رأته، بعدما تأكد لها من موت زوجها المبتسم، أمسكت بتليفونها المحمول لتخبر عشيقها بموت زوجها.. ذاك العشيق الذى علمه الأديب فن الكتابة، ولم يبخل عليه بجهده أو بماله، ثم قامت الزوجة بالاتصال بابنها الوحيد الذى سعد هو الآخر بسماع الخبر فأسرع بدوره بالاتصال بخطيبته:

- أخيراَ يا حبيبتى ستتزوج، أخيراَ مات أبى، على الفور سوف أعود إلى البيت كى أتخلص من كتبه التى استعمرت ثلاث حجرات بأكملها من مجموع خمس حجرات، أخيراً سوف يكون لنا عش الزوجيَّة.

أغلق التليفون . .

عاد مسرعًا إلى بائع الكتب القابع أسفل العمارة ليخبره بموت أبيه، ولم يعد هناك لزومًا لمكتبته، وطالبه أن يأتى لشراء الكتب بأى ثمن يشاء، حتى وإن لم يتوفر المبلغ فحين ميسرة، فليس بين الخيرين حساب . .

تبسم بائع الكتب . . فكم تمنَّى شراء مكتبة المؤلف منذ زمن ! ! وكم من مرة عرض عليه شراءها بأى ثمن يشاء فكان رد المؤلف دائمًا جاهزًا على طرف لسانه :

(لقد أوصيت زوجتى وابنى بدفنها معى فى قبرى . .)

أسرع بائع الكتب بدوره بالاتصال بأحد النقاد (الملاكى . . المأجورين) الذى كان يتمنَّى موت المؤلف؛ حتى يتسنى له نشر ما كتب عنه.

حزينة . .

باكية . .

خرجت أحرف كلمات المؤلف من دفاتر أوراقه القديمة والحديثة، تلك الأحرف التى كتبها وقرأها؛ لتغسله وتكفنه بعدما سمعت كل هذه المؤامرات التى تحاك حول المؤلف . .

غسلوه . .

كفنوه . .

ثم اصطفوا ليصلُّوا عليه، ثم فروا مسرعين هاربين من البيت حيث مكان دفنه ينتظرون قدومه؛ ليعيشوا معه فى قبره كما كان يحلم ويتمنَّى.

الأديب والقاص فى سطور

*** العضويات الأدبيّة:**

- عضو عامل باتحاد كتاب مصر
- عضو اتحاد المبدعين العرب
- عضو نادى القصة

*** صدر له:**

١-الحقيقة المرة- قصص قصيرة. طبعة أولى عام (١٩٩٧م)
٢-من يحمل الراية- قصص قصيرة طبعة أولى عام (٢٠٠٠م)
٣-الحقيقة المرة- قصص قصيرة طبعة ثانية عام (٢٠٠٢ م)
٤-رائحة القدس - قصص قصيرة طبعة أولى عام (٢٠٠٤م)
٥-صور باهتة قصص قصيرة- طبعة أولى عام (٢٠٠٦م)
٦-تواصل العطش- قصص قصيرة-طبعة أولى عام(٢٠٠٩م)
٧-رؤوس تحترق- قصص قصيرة-طبعة أولى عام(٢٠١٠م)
٨- سمع هُس - قصص قصيرة - طبعة أولى عام (٢٠١١م)
٩- أحلام مبتورة- قصص قصيرة - طبعة أولى عام(٢٠١١)
١٠-ذلك الصوت- قصص قصيرة- طبعة أولى عام(٢٠١٢م)

١١ - زهرة فى الميدان - قصص قصيرة- طبعة أولى عام (٢٠١٣م)

١٢- ثورة العرايا - رواية قصيرة - طبعة أولى عام (٢٠١٣م).

١٣- يوسف إدريس أمير القصة العربيَّة عام (٢٠١٣م)

١٤- ابحثوا معى عنى - قصص قصيرة- طبعة أولى عام (٢٠١٤)

١٥-أجازت له لجنة الدراما بإذاعة القاهرة الكبرى قصة (عازف العود) لتصبح تمثيليَّة إذاعيَّة من إخراج / أمجد أبو طالب - عام (١٩٩٧م)

*** جوائز أدبيَّة :**

- فاز بالعديد من الجوائز داخل مصر وخارجها.

*** تكريم:**

- تم تكريمه فى معظم المؤتمرات الأدبية وكرم من قبل العديد من المجلات العربية والمصرية.

المحتوى

إصدارات
سلسلة حروف

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496

في هذه المجموعة يعتمد القاص على اللغة البسيطة التي تتسم بالعمق، كما يستخدم المؤلف الضمني التحليق في عالم التخييل الرحب مع استخدام الرمزية التي لا يعتبرها هدفا في ذاتها، بل هي وسيلة للوصول إلى المضامين التي يحلق بها في عقل المتلقي، كما تهيمن هي عليه، وهي عبارة عن صورة مشهدية كاملة، واتكأ على نهايات تعتمد على الفانتازيا مصحوبة بدهشة تأخذ المتلقي لواقعه، ليشارك المؤلف الضمني مضامينه دون أن يدري.



الغلاف ... د. خالد سرور

الهيئة العامة لقصور الثقافة

حروف

الثمن : جنيهان

www.gocp.gov.eg